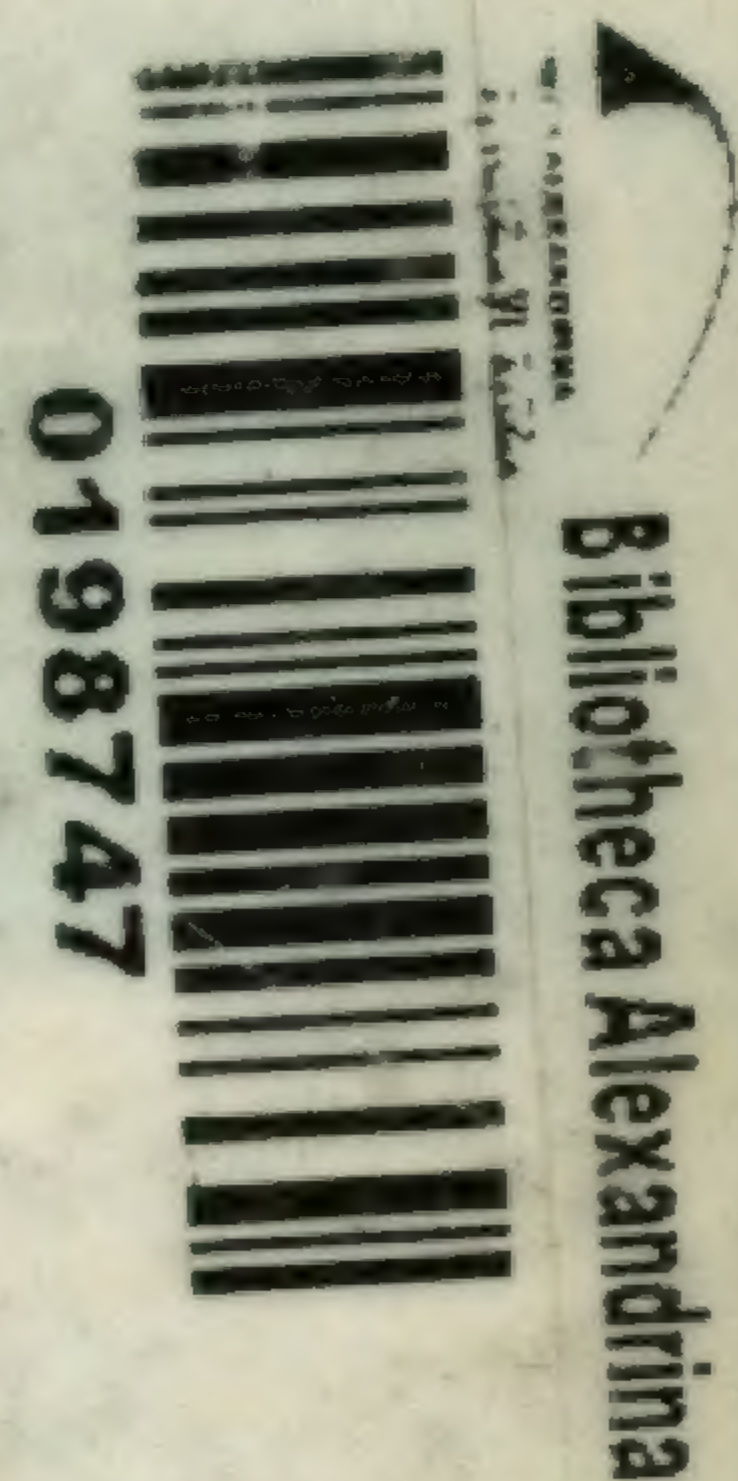
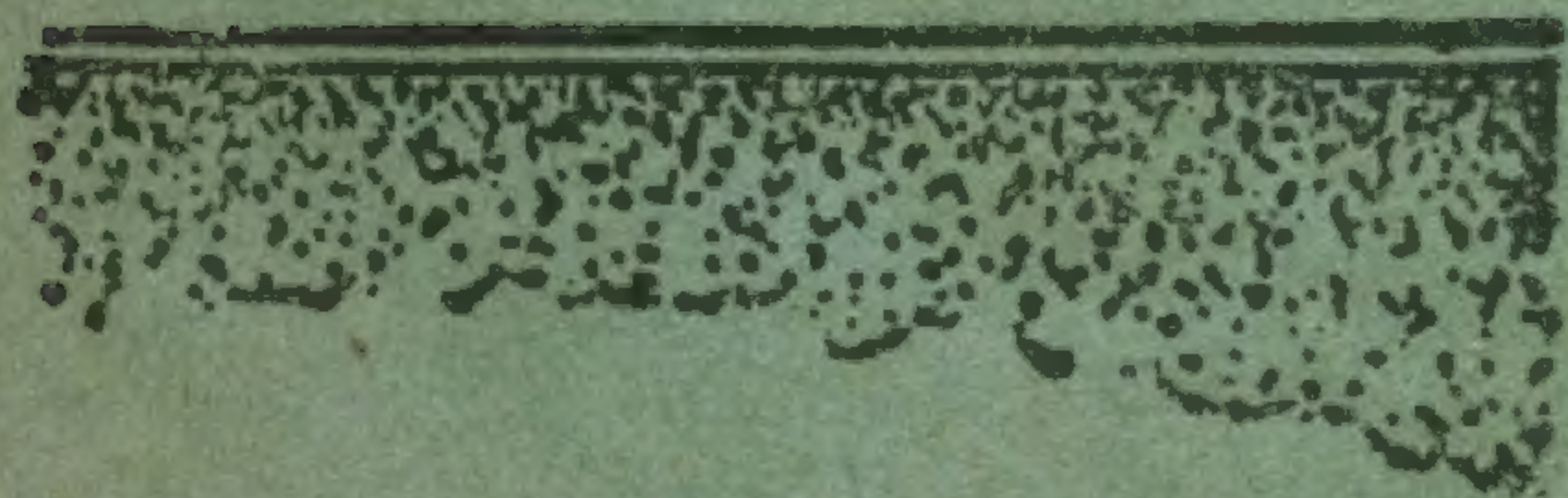
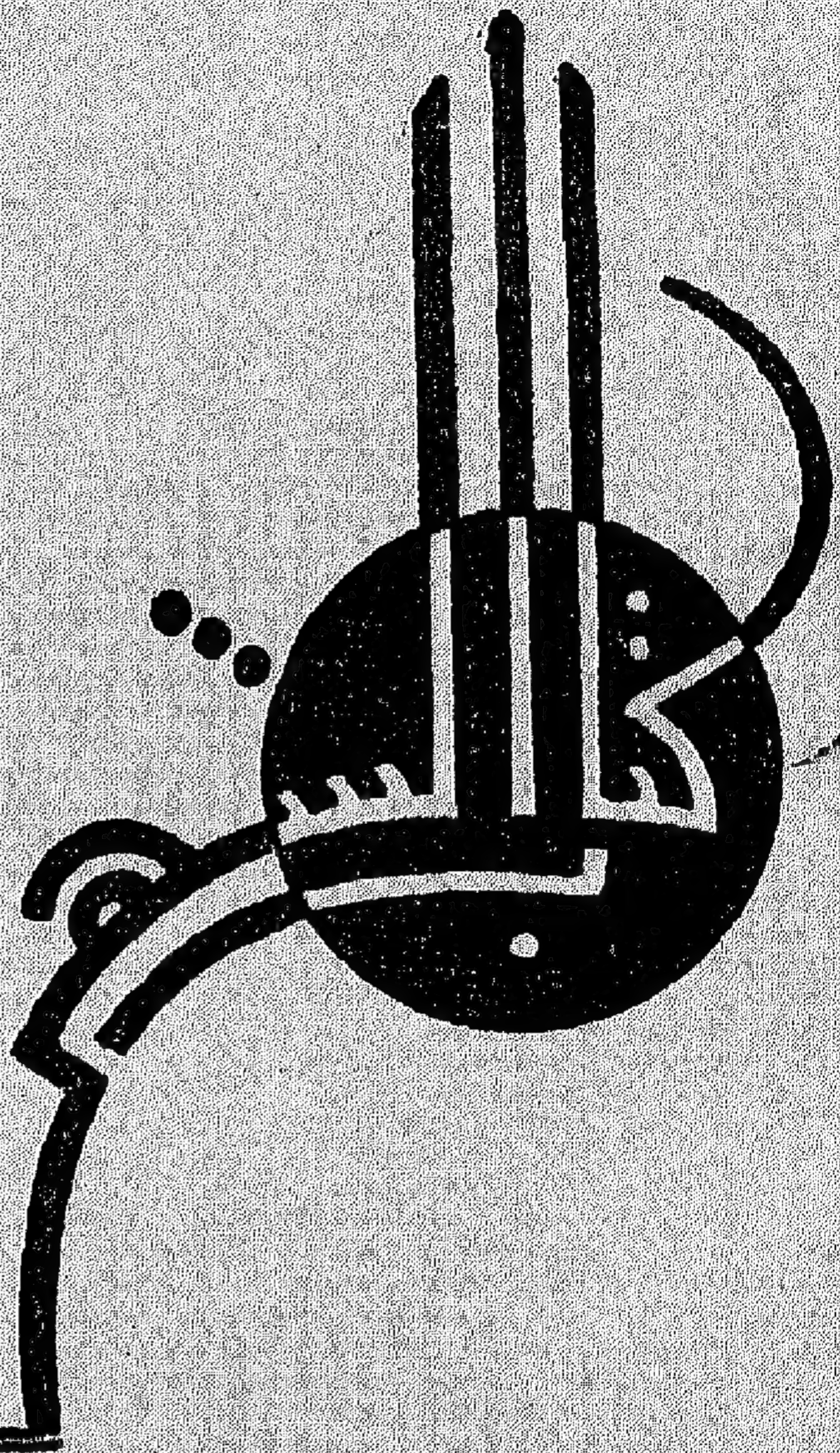




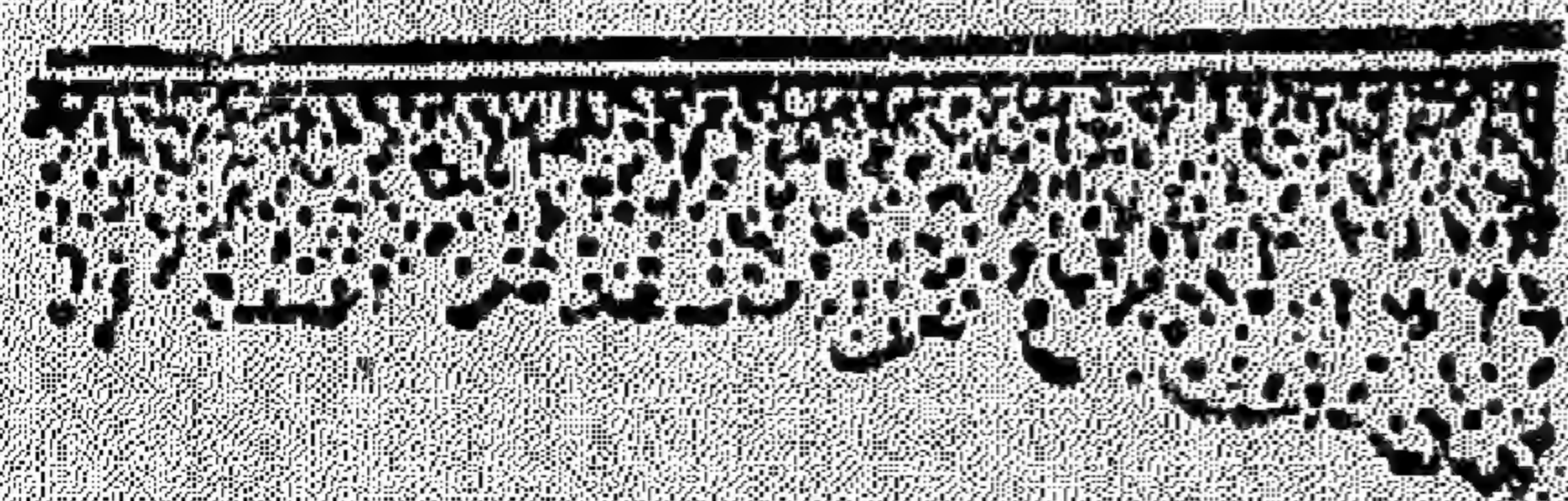
طارق بن زياد



محمد بن عبد القادر



طارق بن زياد

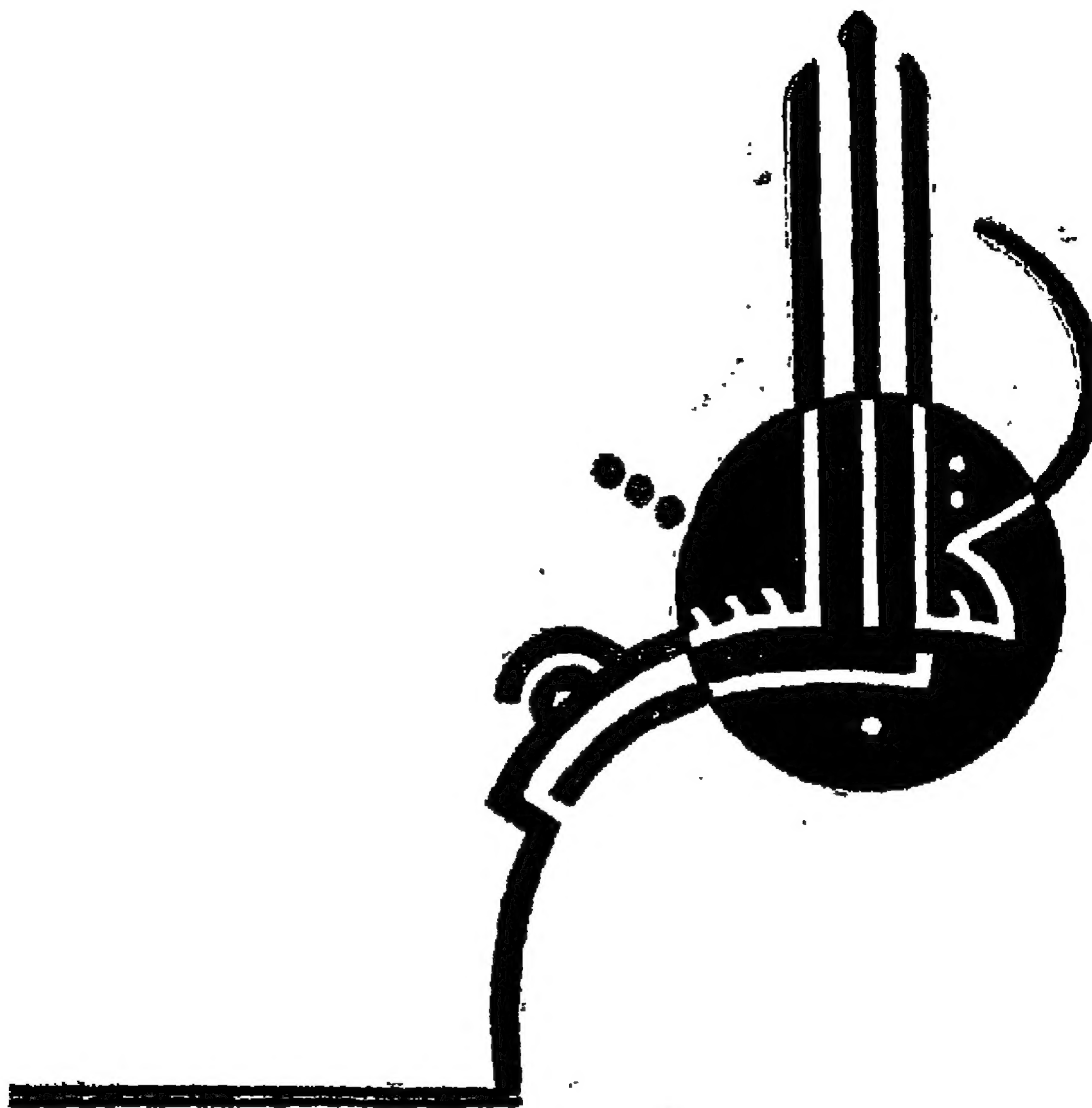


محمد بن عبد القادر

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي



طارق بن زياد

DL

محمد بن عبد القادر



كتاب الشهر القادِم

محمد عليه السلام

بقلم محمد صبيح

كما ستصدر في نفس الشهر
الطبعة الجديدة من كتاب الشهر

محمد عليه السلام

بقلم فتحي رضوان

آية الله ...

ومن آياته أن خلق لكم من
أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها
وجعل بينكم مودة ورحمة
صدق الله العظيم

بشاء الله ، الحكيم فيما هدى ، الكريم فيما انعم
أن يكون كتابي هذا - عن طارق فاتح الاندلس -
هدية أيضا ، ولكنها هدية لزوجي وشريكتي في
الحياة ، التي اكون معها من هذا الشهر أسرة جديدة
تقوم على تقوي الله وحب الوطن . . نسأله تباركت
آياته ، ان يجعلنا دائما من الذين يرددون في
الصباح وفي المساء وفي كل وقت : « ربنا هب لنا
من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين
إماما » .

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استمر شعار الاسلام قائما في الاندلس ثمانية قرون من عام الفتح (٩١ هـ) إلى العام الذي سقطت فيه غرناطة (٨٩٧ هـ) .. وكان خروج آخر أمير مسلم من الاندلس مؤذنا بأن تنجو هذه الشعلة الوهاجة المشرقة من الحضارة ، التي ظلت تنشر الضوء والدفء طوال هذه القرون . . وتأخذ عنها أوربا قبسا بعد قبس في تردد الجاهل ، وحق الدعوى . فلما خبت الشعلة بعد عام ١٤٩٢ م ، عم الاندلس ظلام جديد ، ووصلت حياتها تحت حكم فردناند وإيزابيل ، بحياتها أيام غلبة القوط (Visigoths) عليها ، قبل أن تعرف الاسلام ويعرفها . عاد فردوس المسلمين إلى حكم المسيحية في القرون الوسطى ، ففاض معين الحياة فيه ، وتساقط زهره وثمره وعصفت الريح بأعواده وشجره . فبعد أن كان

في الأندلس متبوع مشتهر (٧٠٠) مكتبة عامة برعايتها
الناس للدرس والبحث في شتى أنواع العلم والفن والمعرفة
وبعد أن كان في مكتبة قرطبة وحدها نصف مليون
كتاب ، أصبحت كل سنة « كتاب » في ذاتها إحدى
الجرائم التي ينبغي الحذر منها . وقد ظلت مدريد عاصمة
الحكم الذي خلف حكم الاسلام — لا تضم مكتبة
عامة واحدة حتى القرن الثامن عشر الميلادي . ولم تفتح
مغالقي مكتبة الاسكوريال إلا على يدي مغربي في
العصر الحديث !!

وفي البلاد التي عاش فيها ابن رشد ، وغيره من قادة
الفكر العالمي وشيوخ الفلسفة ، كان المتحدث عن
نظريات نيوتن وهارفي يستحق عناية محكمة التفتيش ،
التي توجه له تهمة الالحاد .. وعقوبة الملحدين ، هي الموت
بعد التعذيب الشديد .

وبعد أن كانت مدائن الأندلس الاسلامي تزخر
بطلاب العلم والتجار والفرسان الشجعان من جميع أنحاء
العالم ، أصبحت طرق هذه المدائن — في حكم
المسيحيين — مزدحمة ، ولكن بملايين السائلين
والرهبان والسراق ..

بل وصل الامر إلى هدم جميع الحملات التي خلفها
الحكم الاسلامي ، وتخريبها ، وذلك لان النظافة من
عادات المسلمين ، ولا ينبغي أن يتبقى في اسبانيا اى ظل
من عادات هؤلاء القوم الذين طردوا عبر البحر الى
افريقية !!

وكانت هذه الردة الى الجامعة العمياء سببا في ضياع
أسانيد التاريخ ومراجعته ، التي يمكن أن تطالع فيها
صحائف الفرون الثمانية التي عاشها الاسلام في الاندلس
كما أن عناية علماء الاستشراق اتجهت الى الشرق الاسلامي
أكثر مما اتجهت الى الغرب الاسلامي لان الشرق كان
مقر الخلافة ومحيط الصراع بين نظريات السياسة
وأحزابها وخرافات الدين ورجاله . وعلى الرغم من أن
صعود الحياة الاسلامية في الاندلس كانت تختلف عنها
في آسيا في كل شيء : في نظام الحكم ، والاجتماع ،
ومكانة المرأة وأزياء الناس ، وفي الادب والتفكير والعمارة
وطرائق التعامل . على الرغم من هذا كله فقد كانت
العناية بالاندلس قليلة .. قليلة حتى ليجد الباحث الحديث
أعظم الجهد وأكبر المشقة في تتبع هذا القسم من تاريخ
الاسلام . فليس بين أيدينا من المراجع الهامة إلا نحو

عشرة كتب وفيها من الاجمال — وعلى الاخص في فترة
الفتح الاول — ما يحمل أحيانا على الضيق الشديد .
وخصوصا اذا راعينا أن فتوحات العرب في العراق والشام
ومصر ظفرت بتفصيل من المؤرخين القدماء يبحث أحيانا
الى الملل ! !

وأرجو أن تعلم القراء — من الآن — أني لا أؤرخ
في هذا الكتاب شخصية طارق بن زياد ، وإنما اتخذت
من اسمه — كأظهر أسماء الفاتحين في الاندلس عنوانا
للكتاب لا أكثر .. بل أسرع فأقول ان شخصية
طارق نفسها محاطة بمغوض شديد، ولا يكاد الباحث يظفر
بلمحات قصيرة لا تغني ولا تفيد .. ورأيت لكي اتحدث عن
فتح الاندلس ، ان أسير مع جيوش الاسلام من الاسكندرية
الى الغرب ، نجتاز طرابلس تحت قيادة عمرو بن العاص ،
ثم نجتاح تونس وبقية بلاد الاطلس حتي نصل الى المحيط
الاطلنطي . ومن هناك .. من طنجة نتحدر الى الاندلس ،
ونشهد فتحها ، ثم نقف قليلا مع الفاتحين في جنوب فرنسا ،
ونعود فنرند إلى جبل طارق لنلقي نظرة عامة شاملة على
إعلام الاسلام وهي تعلو ربي الفردوس وتظلل وهاده ثم

تراها وهي تنخفض وتعبّر البحر مرة أخرى إلى افريقية.
وسنرى في هذه الرحلة الواثقة المشقة الممتعة كل الامتاع.
وسنعرف من الاسماء المشهورة إلى جانب طارق — فأنح
الاندلس — هؤلاء الابطال الاجداد الذين مهدوا
لهذا الفتح باخضاع الشمال الافريقي كله لسلطان الخلافة
المحمدية ، ومنهم عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وزهير
بن قيس وموسي بن نصير

وأنا واثق من أن بعض هذه الاسماء سيشق علي ذاكرة
بعض القراء فلا يكادون يلمون بها حتى تزول — وأني التمس
لهم العذر . فقد درسنا أيام التلمذة ، وعودنا في مطالعاتنا
الخاصة ان نعرف كل شيء عن الفاتحين في الشرق الاسيوي
وأما هؤلاء الابطال الذين غربوا برايات محمد عليه السلام
حتى وطئت اقدامهم المحيط الاطالطي وجزائر البحر
الابيض فما أقل ما نسمع وما نعرف عنهم . وما أشبههم هؤلاء
الجند المجهولين الذين يذنون بأيديهم اضخم الاجداد وارفعها
شأنا ، ثم تذهب استأؤهم مع النسيان ولا يبقى إلا عملهم .
ولما كانت هذه هي المرة الاولى التي يؤرخ فيها فتح
افريقية والاندلس ، فقد عانيت بأن أشير إلى المراجع
كلما تسنح الفرصة ، وإني أطمع وأنا اختتم هذه المقدمة

ان يكون كتابي هذا حافزا للباحثين على مواصلة السعي
واطالة البحث ، حتي تظهر المكتبة العربية عن هذه الحقبة
من تاريخ الاسلام بمؤلفات تناظر على الاقل ما ألفه
الغرييون عنها . ونخص منهم بالذكر المؤلف النفيس لدوزي
وتعليقات بسكوال جيا نجوس علي ترجمته لكتاب
فتح الطيب في تاريخ الاندلس الرطيب ، وكتاب ابن بول
وغیرهم .

نسأل الله العون التوفيق

صبيح

القاهرة في يوم الخميس ٢٦ جمادي الاول سنة ١٣٥٨

١٣ يوليو سنة ١٩٣٩

صه البحر الى المحيط

وصف عمرو بن العاص البحر لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب
فقال :

« اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير
ليس ، إلا السماء والماء . ان ركذ غرق
القلوب ، وان تحرك أزعج العقول . يزاد فيه
اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على
عود ، ان مال غرق وان نجح برق . . »

وكان عمرو بن العاص قد طلب الاذن بركوب البحر
وغزو قبرس ، فلما وصف البحر بهذا الوصف الخيف ، أتى
عليه أمير المؤمنين هذا الغزو ، وكتب اليه يقول :

« فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر (البحر)
وبالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم . »

سُبْحُ الْفَاتِحِينَ

أصرع البعير راكبه يجتاز هذه الشقة الباقية من
الطريق إلى المدينة ، وهو يسرع كأنما طائر يسبح في
الهواء ، وخفق قلب معاوية خفقا سريعا ، فلما قليل
سيدخل القرية الطيبة التي طال بعده منها ، منذ خرج مع
جيش عمرو بن العاص غازيا في مصر ، وسيلقى فيها
أمير المؤمنين ، وبزجي إليه بشرى الفتح ، وسيرى وجوه
الصحابة والقراة والأهل أجمعين ، وقد كساها البشر ،
واضاءها الأمان . . قال معاوية ، وهو يقص قصته :

« قدمت المدينة في الظهيرة ، فأنتخت راحتي بياب
المسجد . ثم دخلت المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه ، إذ
خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب ، فرأتني شاحبا
على ثياب السفر ، فأتتني فقالت . من أنت . . قلت : أنا

معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاصي (١). فانصرف
عني ، ثم أقبلت تشتد ، اسمع حفيف ازارها على ساقها أو
على ساقها حتى دنت مني فقامت : قم فأجب أمير المؤمنين
بدعوك . فتبعها فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول
رداءه باحدى يديه ، ويشد ازاره بالآخرى . فقال :
ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين . . فتح الله
الاسكندرية . . فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن : اذن
في الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس . ثم قال لي : قم
فأخبر اصحابك . فقامت فأخبرتهم : ثم صلى ودخل منزله
واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال : يا جارية هل
من طعام ؟ . فأنت بخبز وزيت . فقال : كل . فأكلت على
حياه . ثم قال : فان للمسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا
لأكلت معك . فأصبت على حياه . ثم قال : يا جارية هل

(١) كثيرا ما يرد اسمه هكذا بالياء ، وهكذا كتبه بن
عبدالحكم في كتاب فتوح مصر والمغرب التي تنقل عنه هذه الرواية

من عمره . فانت بتعرف في طبق . فقال : كل . فأكلت على
حياء . ثم قال : ماذا رأيت يا معاوية حين أتيت المسجد .
فقلت : ان أمير المؤمنين قاتل (مستريح في القبالة) .
قال : بشس ما قلت او بشس ما ظننت . لئن نمت النهار
لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي . .
فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ! !

ولا والله ما نام أمير المؤمنين ، ولا فتر لحظة عن
التفكير في شأن هذه الامبراطورية الواسعة التي أصبح
سيدها . . ولا والله ما هداً قواده في مشرق الارض
ومغربها عن مشاورة أمير المؤمنين ، وطلب اذنه في
الاندفاع إلى اطراف الدنيا ، حتى لا يخرج عن سلطان
التوحيد الحمدي شبر من أرض أو حفنة من ناس . .
لا تسد لهم حجراً ، ولا يرهبهم ماء ، ولا يقف أمامهم
عائق من عوائق المادة ، فقد غلبت أرواحهم عن كل شيء ،
وذلت لمعنوياتهم عناصر الـكون كله

رُكُوزُ هَرُوبِ بْنِ الْعَاصِ أَعْلَامُ الْإِسْلَامِ عَلَى أُبْرَاجِ
الْأَسْكَنَدَرِيَّةِ ، — عَاصِمَةُ بَحْرِ الرُّومِ وَعُرُوسُ مَدَائِنِ
الدُّنْيَا — ثُمَّ تَلَفَتْ فِي كُلِّ وَجْهٍ ، تَلَفَتْ الْخَائِرُ — الَّذِي لَمْ
يَقْنَعْ بِمَدِّ بِنَا أَفَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ فَتْحٍ ، وَمَا قَبِضَتْ عَلَيْهِ يَمِينُهُ
مِنْ أَجْحَادِ عَرَاضٍ . . . كَانَ الْبَحْرُ أَمَامَهُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَرْبٌ ،
وَكَانَ النَّيْلُ وَرَاءَهُ ، وَالنَّيْلُ مِنْذُ الْيَوْمِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ ، وَفِي
الْمَشْرِقِ آسِيَا الَّتِي أَنْحَدَرُ هُوَ مِنْهَا إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ . . . إِذْنِ
قَلْبُولٍ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَغْرِبِ ، وَلِيَنْدَفِعَ بِجَنْدِهِ لِيَجُوزَ لُويَا (١)
وَيَقْتَحِمَ الْبِلَادَانَ وَالْقُرَى وَيَهْتَفَ مَعَ جَنْدِهِ حَيْثُ حُلِيَ هَتَافُ
مُحَمَّدِ الْخَالِدِ : اللَّهُ أَكْبَرُ . . . اللَّهُ أَكْبَرُ

كَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ ٢٢ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ هَذَا الْإِقْلِيمُ الَّذِي
يُسَمَّى الْإِغْرِيْقُ (بَنْطَابُولِس) ضَعِيفًا فِي مَقَاوِمَتِهِ . حَقٌّ أَنْ

١- يَذْكُرُ بَطْلَرِيقُ الْقَلَاعِ الْمَسْعُودِي وَشَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ فِي إِقْلِيمِ لُويَا أَرْبَعٌ
وَعِشْرُونَ مَدِينَةً مَعْدَا الْقُرَى الصَّغِيرَةِ . وَيَذْكُرُ أَنَّ كُلَّ أَرْضِ السَّاحِلِ
الْوَاتِقَةِ إِلَى غَرْبِ مِصْرَ بَقِيَتْ أَهْلُهُ يَزْكُو بِهَا الزَّرْعُ حَتَّى مَضَتْ قُرُونُ
ثَلَاثَةٍ مِنَ الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ

يطلب يذكرو عن زحف العرب اليه انه كان نزهة لفرسانهم .
ولم يلقوا في سيرهم هذا كبير كيد . فلا يذكرو انه قد وقع
قتال حتى بلغ العرب بركة . والظاهر انها سلمت لهم صلحا .
على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر الف دينار جزية . لومة
كل عام . وقد جاء في شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان :
الاول انه أيسح لأهل بركة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا
بالجزية المفروضة . والثاني أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية
الى مصر حتى لا يسمح بدخول حياة الجزية الى بلادهم .
وسار عمرو بن العاص بعد بركة الى طرابلس .
فحاصرها شهراً . وكانت مكشوفة السور من جانب البحر
وسفن الروم في مرساها . فلما جاء الجزر . وانكشف الماء
عن الشاطئ . اقتحم العرب الطريق بين البحر والمدينة .
ثم كبروا تكبيرهم . وما أطلق الحراس من الدهشة إلا
وسيوف المسلمين تلورده وسهم . ففروا . وتمكن بعض رجال
بيزنطة من الوصول الى بعض قطع أسطولهم الذي كان

يرسو غير بعيد . وهربوا بجلودهم . وكان عمرو بن العاص
— شيخ الفاتحين بحق — يجتمع مع نظيره خالد بن الوليد
في سرعة الخاطر . وسرعة الحركة . فما أن وضع يده على
مدينة طرابلس حتى اندفع دفعة أخرى الى مدينة صبره (١)
ولم يكن في حساب أهلها أن العرب سيقدرون على اقتحام
طرابلس إلا بعد جهد طويل . وان مسيرهم اليهم سيطول
فكان وصول خيل المسلمين عند فجر أحد الايام الى
مدينتهم مفاجأة لهم لم يزلوا من نفوسهم إلا تسليتهم لعمرو
ابن العاص .

وبفتح هذه المدينة دانت طرابلس كلها أو (بنطابولس)
لحكم الاسلام . وكتب عمرو الى أمير المؤمنين في المدينة
يقول له :

١ هكذا وردت في كتاب الاستبصار لأخبار دول المغرب الأقصى
وفي ابن خلدون . وورد في ترجمة بطرأنها صبره ، وهي مدينة زرارمة
الآن

« ائنا قد بلغنا طرابلس . وبينها وبين إفريقية (أى تونس) تسعة أيام . فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل . »

ولسكن أمير المؤمنين كان يحب الأتاة والتودة . ويكره أن يعتمد عنه صحابة رسول الله في هذه الاقطار النائية . فرد على عمرو يقول له ان إفريقية مفرقة فعد . . . فماد فاتح مصر من اقليعه الجديد وهو كاره . وخلف على حكم طرابلس أحد قواده الشبان من ذوى قرباه . وهو عقبة بن نافع

— ٢ —

أصحاب محمد

انقضت أيام عمر بن الخطاب . وتولى الخليفة من بعده عثمان بن عفان . فكان من أول أعماله أنه عزل عن ولاية مصر أميرها وفاتحها عمرو بن العاص . وولى مكانه

— ١٨ —

عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخاه في الرضاة .
ورأى عبد الله أن يحقق حلم سلفه . ويستمر في غزو
الفرقية . ويتقدم بجيوش المسلمين دفعة أخرى نحو الغرب
فكتب إلى عثمان بن عفان يستأذنه في المسير للفتح . ولكن
عثمان يعلم أن عمر بن الخطاب . كان قد أبى امتداد الفتح
إلى الغرب . فكتب إلى واليه على مصر يقول له : إني
ما أرى فئدة خيراً . وقد كرهها عمر من قبلي

أكتفى عبد الله بن سعد من الفتح الذي كان يطمح
فيه ، بتوجيه الرجال يغيرون على أطراف المغرب ويأتون
بالغنائم . ويبيع منها إلى عثمان . فلما رأى عثمان هذه الغنائم
عاود التفكير في أمر الفتح ورأى ألا يقطع فيه برأى حتى
يشاور الصحابة . فأشار عليه علي بن أبي طالب . وطلحة
والزبير وسعد بن أبي وقاص بأن يسن سنة سلفه ،
ولكن فكرة الفتح ألحّت على عثمان وظلت تعاوده في كل لحظة
فحزم أمره . وقرر أن يسير جيشاً لفتح المغرب . .

وفي صباح يوم كان شباب الصحابة ، وابناء المجاهدين
الاول قد تجمعوا في المسجد ، يريدون تلبية داعي الاسلام ،
والسير إلى افرقية ، وخرج عثمان ، فوجد عبد الرحمن
ابن ابي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن
العاص (١) وغيرهم كثيرين . . يقول الواقدي : فلما
نظر الناس الى وجوه الصحابة وابنائهم قد اجتمعوا ،
اقبلوا على الجهاد طائعين ، ولدعوة عثمان مجيبين . فلما
اكتملوا ، عرضهم عثمان ، واذا هم اربعة آلاف فارس
وثمان مئة رجل من اخلاط القبائل . فتجهزوا بما امكنهم ،
وأعطاهم عثمان بألف بعير باقائبها ، وفتح خزانة السلاح
وفرقها عليهم وعلى قوادهم . وأمر عليهم مروان بن الحكم .
وقام عثمان في الجيش خطيبا فقال :
ايها الناس . انكم أصبحتم بدار لا يصلح فيها

(١) ذكرت المراجع مثل الاستقصا ، ان الحسن والحسين ابني
علي بن ابي طالب كانا في هذا الجيش

التضجيع والتواني . وقد رأيتم عمر بن الخطاب وما فتح
الله على يديه من الشام ومن بلاد الاعجام وارض مصر .
وكانت أهل هذه البلاد أشد قوة ، وأكثر عدداً ، وأحسن
سلاحاً ، وأغزر مالا .. وفتحها الله على عباده بتقوى الله
الذي يبقى ويفنى ما سواه ، وأنا أرجو الله أن يفتح عليكم
ويغفر لكم بها ، ويعينكم عليها ويفتحها الله عليكم بمنه وكرمه .
ولقد كتبت إلى عاملي بمصر عبد الله بن سعد ، وعهدت
إليه أن يحسن صحبتكم وأن يوفق بكم ، وأن يكون عند
عهدي وأمرى أن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،
وحسبنا الله ونعم الوكيل . فسيروا بحكم الله والله خليفتي
عليكم . . .

وسار الجيش القليل بهدده ، والكثير بأمله
حتى جاوز المدينة ، والشيخ الطيب - عثمان بن
عفان - يتابعه بنظره ، ويدعو الله أن يوفقه وينصره ..
وهناك في مصر ضم عبد الله بن سعد إلى جيش

المدينة جيشا من عنده ، بلغ في تقدير عشرة آلاف ، وفي
تقدير آخر نحو ضعف هذا العدد ، وزحفوا بجمعهم على
ساحل البحر ، حتى وصلوا إلى برقة ، وكان ذلك سنة
ست وعشرين هجرية . وفي برقة لقيهم عقبة بن نافع واليها ،
وسار الجميع حتى وصلوا إلى طرابلس ، واستردوها ثانية
من الروم ، واستمروا حتى حدود تونس ...

وكان الشمال الأفريقي كله من حدود طرابلس الغربية
حتى مدينة طنجة ، أي حتى ساحل المحيط الأطلسي لا يزال
تحت حكم الروم ، وحاكمها من قبل بزنطة ، كان يؤدي
لعمامة الأغريق خراجا معلوما كل عام .. وكان العرب
يسمونه « جرجير »

طرق المسلمون بقبضاتهم القوية أبواب « جرجير »
هنا ، فأطل عليهم من مملكتهم ، يسأل عن شأنهم . فقالوا :
الأمم يارجل . هلم ادخل في هذا الدين الذي دخل فيه
أهل مصر .. فرفض « جرجير » في غضب ، فأرسل إليه

عبد الله بن سعد : حسنا . لا تريد أن تسلم .. اذن أد لنا
الجزية عن يد وانت صاغر . فقهه جرجير . وقل : اتريدون
ان يتسامح الملوك بأنى ذلت لكم .. لا وحق المسيح .
ولا رينكم من صنوف الحرب ما لم تروه عند غيرى .

وحشد جرجير جيشه ، فكانت عدته مئة وعشرين
ألف مقاتل . وكانت الانباء قد أبطأت على عثمان بن عفان ،
فخشى أن يكون المسلمون قد نكبوا في هذه البلاد البعيدة
فأعد مددا ، وأرسل على رأسهم عبد الله بن الزبير ،
وأوصاه أن يسرع اليه بالأخبار . وقد وصل الندد في ساعته
المناسبة ، قبيل اشتباك جيش مصر والمدينة ، وجيش الروم
والبربر ..

وبدأ القتال ، وبحث عبد الله بن الزبير عن القائد
للعام عبد الله بن سعد ، فلم يجده ، ودار هذا وهناك ، حتى
وجده في مكان بعيد . فسأله عن شأنه . فقال : سمعت
متادى جرجير يصبح في قومه : من قتل ابن أبي السرح

فله مئة الف دينار ، وأزوجه ابنتي .. فتبسم عبد الله ابن
الزبير وقال: ونحن نكيدك من جنس كيدك وأشار على عبد الله
ابن سعد ان ينادى بدوره في جنده : من قتل جرجير فله
مئة الف دينار ، وأزوجه ابنة جرجير ، واستعمله على
بلادهم . فباع قائد الروم هذا النداء ، فخاف خوفا شديدا ،
وخيل اليه أن هذه الكثرة من الجند ان تغنيه عن الهلاك
شيئا .. وكان عبد الله بن الزبير مشيرا حكيما ، فقد نصح
عبد الله بن أبي السرح بأن يختار من الجيش جماعة من
الصحابية ، وأبطالهم المشاهير ، ويأمرهم بأن يكمنوا غير
يعيد ، حتى إذا طال اشتباك القوم باقوم ، ووهنت السواعد
ووجفت قلوب الفريقين ، انهمدر هؤلاء الجند
الكرام على الأعداء ، فينكسروا بالأعداء ما أمكنهم
القتل وفقدت هذه الخطة ، وكان رأس هذه الحملة
الجديدة صاحب فكرتها عبد الله بن الزبير .. فما لبث الروم
والزبير وقد حسبوا أن قوة المسلمين قد وهنت ، أن

رأوا هجوما عتيقا يتقض عليهم اقتضاى الصواعق ويسد
عليهم المسالك كلها - فوقهم فى صفوفهم الاضطراب ،
وشاعت الفتنة ، واندمع ابن الزبير هوب جرجير ، فجعل
معه جوثتين ، يوما لبث أن صرعه ، واحتز رأسه . . .
فكانت له الجائزة : ابنة جرجير ، والمال الوفير . . . وأما
ولاية الاقليم فقد رغب عنها ، لانه وعد عيمان بن عفان
أن يعود اليه على عجل بنبا الفتح ، ثم إن له فى المدينة
قوسها ما ربح وأطاعا 11

وتمت هزيمة الاعداء ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة
حتى بلغ خمس المال التى أرسل إلى عاصمة الخلافة مليون
دينار ، وكان نصيب كل فارس من الجيش ثلاثة آلاف
دينار ، ونصيب كل رجل ألفا ..

في مريّة الرسول

ولما وصل عبد الله بن الزبير إلى المدينة تلقاه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فلما دفع إليه نبأ النصر ، قوت عينه ورخصت نفسه ، وسجد لربه شكرا .. ثم خرج إلى المسجد وخاطب المسلمين بقوله : أيها الناس ان الله قد فتح عليكم افرقيته ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها ان شاء الله فوقف عبد الله بجانب المنبر ، وخطب القوم خطبة فريدة ، وصف فيها مسير الجيش ، وما كانت بينه وبين أعدائه إذا بدأ القتال ، وما كان بينه وبين الله إذا جاء الليل واستراح المسكر ، من ذكر الله وقراءة القرآن حتى يسمع للمسلمين « دوى كدوى النحل » . . . قال عبد الله :

(١) الحمد لله الذي ألف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين

(١) راجع الجزء الثاني من العقد الفريد

بعد البغضة ، الذي لا يجعد نعاؤه ولا يزول منكه . له
الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله . انتخب محمدا صلى الله
عليه وسلم ، فاختاره بعلمه ، واتبعته على وحيه ، واختار
له من الناس أعوانا قذف في قلوبهم تصديقه ومحبتة فآمنوا
به ، وعززوه ، ووقروه وجاهدوا في الله حق جهاده .
فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيم
الرابع . وبقي منهم من بقي ، لا تأخذهم في الله لومة لائم
أيها الناس ! رحمكم الله . اننا خرجنا للوجه الذي
علمتم (أفريقية) ، فكنا مع وال حانظ ، حنظ وصية أمير
المؤمنين . وكان يسير بنا الأبردين (الغداة والعشي) ،
وينخفض (يكف عن المسير) بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل
جلا يعجل الرحلة من المنزل الجدد ، ويطيل اللبث في
المنزل الخصب . فلم نزل على أحسن حلة نعرفها من ربنا
حتى اتينا إلى أفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون
سهيل الخليل ورغاء الأبل ، وقمعة السلاح . فاقنا أياما نجيم

كُراعنا (فريج خيلنا) ، ونصلح سلاحنا ثم دعوناهم الى
الاسلام والدخول فيه فابعدوا عنه . فسألناهم الجزية عن
صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد . فأقمتا عليهم ثلاث
عشرة ليلة ثأناهم وتختلف رسلنا اليهم . فلما يئس منهم
قام خطيبا فحمد الله واثني عليه . وذكر فضل الجهاد وما
لصاحبه اذا صبر واحتسب . ثم نهضنا الى عدونا ، وقاتلناهم
أشد القتال يوما ذاك . وصبر فيه الفريقان فكانت بيننا
وبينهم قتلى كثيرة واستشهد الله رجالا من المسلمين فبينا
وباتوا وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل . وبات
المشركون في خورهم وملاعبهم . فلما أصبحنا أخذنا
مصافنا (أما كنتا) التي حكا عليها بالامس ،
فرحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل
علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا
غنائم كثيرة ، وفيثا واسعا بالغ فيه الخمس خمس مئة ألف
فصفق (اودعها الخزائن) عليها مروان بن الحكم فتركت

المسلمين قد قرث أعينهم وأغناهم النفل وأنا رسوهم الى
أمير المؤمنين أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد وأذل
من الشرك.. فاحمدوا الله على آلائه وما أحل بأعدائه من
بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين »

وينبئ لنا ونحن نمود بخيالنا إلى هذا العهد الزاخر
بأجساد الفتح ومظاهر البطولة ، أت نذكر هذا الخليفة
الطيب الين عثمان بن عفان بكلمة حمد وثناء . فهو على
الرغم من كل ما قيل عن حكمه وإدارته ، قد خطا بفتوح
الاسلام خطوات أبعد مما أراد عمر بن الخطاب وحسبنا
أن نذكر أنه أباح ركوب البحر للمسلمين ، ففزا معاوية
ابن أبي سفيان قبرس وضعبها إلى ملكه ، وبذا تأسس
أول اسطول بحري للمسلمين كانت قاعدته الكبرى
الاسكندرية ، وقد تمكن في عهد عثمان (عام ٣١ هـ) من
أن يهزم اسطول يزنطة بالقرب من الثغر المصري الكبير
في معركة كبيرة تسمى ذات السوارى . وقد ذكر أن

وحدات الأسطول المصري بلغت اذ ذاك ألف سفينة
ومئتين . . .

ونحن هنا قدم لفتح الاندلس بذكر فتوح المسلمين
في افريقية ، وقد اوقفها عمر بن الخطاب عند حد معين
لا تتجاوز ، ولكن عثمان بن عفان اباح التوسع ، وارسل
الامداد ، وهذه منطقة تونس تضاف في عهده إلى ملك
المسلمين . . .

بل ان ابن الاثير يذهب خطوة أبعد ، فيقول في
انباء سنة ٢٦ هـ ولما افتتحت افريقية أمر عثمان عبد الله
بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن القيس أن يسيرا
إلى الاندلس ، فأتياها من قبل البحر ، وكتب عثمان إلى
من اقتدب معهما : « أما بعد ، فان السلطانية انما تفتح من
قبل الاندلس فخرجوا وهم البربر ، ففتح الله على المسلمين
وزاد في سلطان المسلمين مثل افريقية . .

ونحن لانميل إلى تصديق هذه الرواية ، فما كان يمكن

التفكير في فتح الاندلس ، ولم يزل المسلمون في تونس ،
وامامهم عمل كثير حتى يكمل لهم الاستيلاء على بقية
بلاد الاطلس ، والوصول الى طنجة ، مفتاح الاندلس . ثم
ان البربر ، الذين يذكر ابن الاثير انهم كانوا في جيش هذا
الفتح المزعوم ، لم يكن الاسلام قد دخل قلوبهم بعد ، حتى
يظن ان لهم في تأليف الجيوش ، بل سري بعد حين كيف
ثاروا ، وارتدوا عن الاسلام ، وكفوا المسلمين خسائر
فادحة . . .

والذي نلاحظه بعسفة عامة أن ابن الاثير والطبري
كانا زعمى التاريخ الاسلامى فى كل مايتصل بشؤون
المشرق الاسيوى ، ومقر الخلافة . . . وأما شؤون المغرب
الاfricanى ، والاندلس من بعده . فكان حظهما من العلم
بأحواله ضئيلا . حتى ترى ابن الاثير نفسه يشور على
الطبرى فى أكثر من موضع . ويلومه على إيجازه وأخطائه
ويقول ان مؤرخى المغرب أدرى بشؤونهم

فعود بعند هذا الاستطراد . فنقول ان فكرة
فتح القسطنطينية عن طريق الاندلس أى بالمسير اليها من
غرب أوروبا الجنوبي . والمرور بفرنسا وإيطاليا وبلاد
الأغريق (البلقان) التى أنطق بها ابن الأثير عثمان بن عفان
كانت فيما بعد من أهم الحوافز التى حملت المسلمين على
اقتحام المضيق بين القارتين وغزو الاندلس ثم الاندفاع
الى الشمال حتى فرنسا والوصول الى ليون وطولون ثم غزو
صقلية وسردينيا وشواطئ إيطاليا من طريق آخر فقد كان
هدف أكثر هذه الحملات الوصول الى عاصمة بيزنطة .
وسنتناول هذا المشروع الجرى بالتفصيل فى مكانه من
هذا الكتاب انشاء الله

آثر الصحابة

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح واليا على مصر . وهو الذي حصل من أمير المؤمنين عثمان على اذن بفتح تونس ، وقد لقي البربر مرتين جيش مصر ، ومن مدد الصحابة الذي جاءهم جهدا بالغاء ، وذاقوا هزيمة مرة . وبعد أن قتل ملكهم جرجير ، تابع المسلمون الاغارة على الاطراف المجاورة ، ورأى زعماء الفرنجة والبربر أن يتقدموا مع والي مصر صلحا ، يوقف هذه النار المتصلة . وقد طلبوا من ابن أبي السرح أن يشتري رجوع العرب عن بلادهم بما يريد من مال ، فطلب منهم ثلاث مئة منطار من الذهب (١) وأن يختار لهم أميرهم من بينهم ، فأقروا بهذا الطلب وجمعوا له الاموال فأخذها ، وعين لهم حاكمهم فقبضوا به وعاد الى مصر مع الجيش بعد ان مكث في هذا النزو

١ الاستقصا - ص ٣٦

(٢) طارق بن زياد

ثلاثة اشهر (٢)

وعلى الرغم من أن جيوش عمر بن الخطاب سحقت
قوة هرقل في المشرق .. الشام وفلسطين ومصر .. الا أن
بيزنطة كانت تسيطر على قسم كبير من حوض البحر المتوسط
وكانت هذه المناطق الافريقية التي يغير عليها المسلمون
تحت سلطانها .

وما بلغ الامبراطور نبأ هذا الصلح الذي عقده البربر
والفرنجية مع المسلمين حتى اوفد جيشا على رأسه أحد
اعوانه المخلصين من رجال الدين ، يعرف في كتب التاريخ
المغربى « بالبطريق » ..

نزل البطريق قرطاجنة . وازال الحاكم الذى يولاه ابن
ابى السرح عن مكانه ، فهرب الى المشرق بالنفس النجدة
وأخذ هذا البيزنطى الجديد ينظم الامر فى مملكة
« جرجير » على أذنها ولاية من ولايات الاغريق ..

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٧٠

أصرع الحاكم المطرود الى المشرق ، فإذا بإحداث
جسام تشغل المسلمين في أقطارهم جميعا . فقد قتل عثمان
الخليفة الراشد ، وتولى من بعده علي بن أبي طالب ، وبها
معاوية بن أبي سفيان بشاقه ، ويرقم عليه من مقره في الشام
رأية العصيان . .

انفتت الامة الاسلامية خمسة أعوام وهي مشغولة
بقتلة وقتل عثمان ، وبانزاع بين الحجاز والمراق وبين الشام .
ولم يجد القادم المغربي في هذا الضجيج القائم بين صحابة
محمد عليه السلام ، أذنا تسمع ولا أفهاما تعى . فأقام الرجل على
مضض ينظر الوقت الذي يستقر فيه الامر لاحد الحزبين
المتخاصمين . .

وانتهت الحروب والفتن الى ما نعرف جميعا من غلبة
دمشق وصاحبها ، واتخاذها قاعدة الامبراطورية
الاسلامية ، وتنصيب معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة

لحمد عليه السلام ، ولما تكا للمسلمين اجمعين . فبرول حاكم
افريقية الطريد إلى دمشق ، ولقى معاوية ، ووجد منه اهتماما
بأحداث ذلك ، توجه من الارض ، ولما بدل (البطريق)
البيزنطى فيه وغير . . .

ونظر معاوية حوله ، فيمن يختار من الرجال لازالة
نفوذ قيصر عن تونس ، فوجد شخصا سبق لنا ذكره هو
معاوية بن حديج الذى قدم على عمر بن الخطاب بنياً فتح
الاسكندرية ، وكان من جند الفتح الافريقى الظاهرين .
اختار الخلافة هذا القائد ، وحشد معه عشرة آلاف
مقاتل ، ووجهه إلى افريقية بصحبة الحاكم البربرى . . وما
أن وصل الجيش إلى الاسكندرية ، حتى كانت علة
الكبر وعلة المرض قد انتهت بهذا الاستقيث الذى طال
عليه الامد ، إلى ماينتهى اليه كل حى ، وهو الموت .
فدفن فى ارض غير ارضه ، وهى الاسكندرية ، ودار
معاوية بين حديج مجتازا طرا بلس ، حتى وصل إلى تونس

واستعد لحرب البطريق . .

وكان الحاكم البيزنطي على علم بأنباء هذه الحملة ،
فحشد ثلثيها ثلاثين ألف مقاتل جاءته مددا في البحر من
قل قيصر ، واستنصر أهل المدن والقرى ، ولكنه لم
يجد منهم نصيرا . . فقد كان وصول المسلمين إلى بلادهم
سببا في معرفة قليل منهم بدين الاسلام فلما وازنوا بينه
وبين نصرانية قيصر ، اختاروا الاول على الثاني ،
وخصوصا ان انباء من الشرق كانت تأتيهم مع التجار
والزوار بهذا المدل الذي يعم ارجاء الاقطار الاسلامية ،
وهذه الرحلة التي أخذ بها المسلمون أهل الارض المتزعة
من املاك قيصر مثل مصر وفلسطين والشام فكان أقل
البربر يقبلون على الاسلام ، واكثرهم ينصرفون عنه كما
انصرفوا عن المسيحية محتفظين بوثنيتهم القديمة

فقد البطريق حرارة أهل البلاد في مؤازرته ، ولم
يغنه جمه الكثير عن نفسه شيئا . فقد كان جند المسلمين

قُربى عهد بفتح عمر بن الخطاب ، بل بصحبة نبي عمر
وجميع المسلمين .

وقعت الواقعة ، واندحر اتباع قيصر ، وانتصرت
جند محمد ، وعادت تونس مرة أخرى الى الاسلام بعد
أن تحطمت مقاومة البيزنطيين . وفكر معاوية بن حديج
في امر هذا المدد الكثيف الذي اقبل من بيزنطة لعون
«البطريق» وكاد يكون خطرا داهيا عليه ، ورأى ان يحناط
لهذا الامر ، فيستولى في البحر على اهم الجزر التي تقلم منها
اساطيل قيصر او تستريح اليها وتمتار . . وكانت جزيرة
صقلية اقرب هذه الجزر إلى تونس فأعد اسطولا
ضخمًا من مئتي سفينة ، وزوده بالرجال والسلاح
واقلم الاسطول حتى صار في صقلية ، وهناك نزل المسلمون
وحاربوا حرب بطولة . وكانت هذه الحملة الاولى التي
سيرت إلى صقلية ، وقد امكن ترسم هذا الطريق بعد قليل
وفي دولة الاغالبية بصفة خاصة ، للاغارة على شواطئ

إيطاليا ، وإنفاذ الإسلام في بعض مناطقها ..

وكما كان غزو صقلية خطوة حربية تمتع اتصال بيزنطة بهذا التسم من أفريقية ، كان كذلك حلقة في سلسلة التطويق التي أريد بها عزل بيزنطة عن جميع أملاكها ثم الانحدار عليها من كل وجه ، واخضاعها لحكم الإسلام . . . وربما كانت أبصار المسلمين تنو كذلك إلى روما حيث يستقر قطب المسيحية الدينية ، فليس هناك ما يمنع أن يكون لدى هذه الجيوش الغازية أربا عنده :

« كان قواد الخلافة مضطرين إلى أن يخوضوا معاهم كثيرة ، ويقاتلوا مستبسلين قبل أن يتمكنوا من تثبيت أقدامهم في الشاطئ الشمالي لأفريقية . ولم يكن حربيهم قاصرا على مكافحة الجيوش المسيحية المقيمة على الشواطئ ، ولما سكنهم كانوا مضطرين كذلك إلى صد البربر (المرأكشين) الذين يقطنون داخل البلاد . وأكثر من هذا وذاك ، قد أخذت أوروبا تشمر بالفرع من هذا الخطر الدائم الذي

يزحف نحوهم رويدا رويدا . ولذا أسرعت جنود الرومان
 من القسطنطينية ، وجيوش القوط من ايطاليا . وعبروا
 البحر على عجل لتقديم العون للمدينة القديمة « قرطاجنة »
 ولكن لم يجد كل هذا شيئا . فقد سقطت قرطاجنة ، ودكت
 معالمها تحت مطارق الفاتحين الاقوياء عام ٦٩٨ م ... » (١)
 وبعد هذا الفتح نظر الخليفة معاوية في أمر أفريقية ،
 فرأى من سداد الرأي ألا تظل هذه المناطق المضاعة حديثا
 إلى رقعة الارض الاسلامية تابعة لحاكم مصر . . حقيقة
 كانت مصر هي عماد الغزو ، وصاحبة الفضل في الفتح ،
 ولكن الشقة الآن بدت بين الفسطاط ، وبين القيروان ،
 ومن الخير كل الخير أن يكون حاكم مصر غير حاكم
 افريقية . . وعاد معاوية بن حديج من المشرق ، « وكان إذا
 قدم على الخليفة زينب له الطرق بقباب الرياحان تعظما لشأنه » (٢)

(1) Concise History of the World by Sir Marriot
 P 216

وقرر الخليفة ان يختار من قواد المسلمين القدماء في
افريقية ، شخصا بصيرا حازما عاقلا فاستشار عمرو بن العاص ،
فلم يجد عنده اكمأ ولا انصع من عقبة بن نافع الفهري
الذي كان اكبر عون لعمرو بن العاص في فتح طرابلس ،
والذي تولى منذ ذلك الوقت حكم برقة ، وغيرها من
افريقية ، وسلمخ حتى الآن اكثر من عشرين سنة وهو
مقيم بهذه الاصقاع .

ومعاوية بن ابي سفيان خير من يعرف الرجال ويزن
مزايام ، وكان اختياره هذا آية في التوفيق وسداد الرأي
فقد اتى لعقبة بن نافع ، وهو أول حاكم مستقل عن مصر
في حكم افريقية أن يكون شخصية من ألمع شخصيات
التاريخ الاسلامي . وحسبه أنه كان صحابيا بالمولد ، وأنه
عميق الفقه بالاسلام ، كثير النقوى والورع . لم يستخفه
جاء الحكم ، ولا غانم الفتح كما استخفت غيره من الفاتحين
حتى لتروى الاقاويص عن تقواه وورعه . ونحن لا نريد

أن نصوره «رثاعيا» كما تصور به بعض كتب التذمة ،
فتجمل الثعابين ودواب الارض وهوامها تسمع له وتطيع
من ذلك ما ذكر عنه ان اهل افريقية في مدة حكمه «انفقوا
اربعين سنة لو التمس خيصة او عترب بألف دينار ما
وجدت 11 . » . أقول لا نريد ان نجمل منه صاحب سحر
وحجابه ، ولكنه صاحب فضيلة وبصيرة وإيمان صادق .
ماذا صنع هذا الرجل - عقبة بن نافع - الذي ذكرنا
من صفته ما ذكرناه 12

يقول السلاوي في كتاب الاستقصا : « كان عمرو بن
العاص وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هذا ، وهو
ابن خالته ، على افريقية ، فانتهى إلى لواته ومزاته ، فأطاعوا
ثم كفروا . فغزاهم وقتل وسي ثم افتتح سنة اثنين واربعين
غدامس من تخوم السودان ، وفي السنة التي بعدها افتتح
ودان وكورا من كور السودان وأثنى في تلك النواحي
وكان له فيها جهاد وفتوح ، فظهر غنؤه وعرفت نبلته

وكفايته . فلما كان سنة خمسين ولاد معاوية رضى الله عنه
على افريقية استقلالا ، وبعث معه عشرة آلاف فارس ،
فدخل عقبة افريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها
وانضاف اليه مسلو البربر - فكثرت جمعه - ووضع السيف
في أهلها لانهم كانوا اذا جاءت عساكر المسلمين اسلموا .
فاذا رجعوا عنها ارتدوا . . . »

ورأى عقبة لدرء هذا الخطر الدائم من جند البربر أهل
الصحراء والجبال ، وذوى القوة والبأس ، ان يقيم في تونس
اقامة تعمير ، لاقامة ارتحال . وقرران بيني مدينة محصنة
تكون نقطة ارتكاز في الهجوم والدفاع

ولم يشأ أن يكون بناء مدينته قريبا من الساحل ،
والا لاختار مدينة تونس ، حتى لا يفاجأ بغارات الروم
البحرية . . فاتجهوا إلى الجنوب من تونس ، وبات في واد
يسمى وادي القيروان ، فلما أصبح وقف على رأس الوادي
فأعجبه مكانه ، وأن كان قد أهمه كثرة الوحوش والموام

فيه ، فأمر الجيش بمطاردتها وتطهير المكان منها ، ولما
 فرغوا من اعداد بقعة الارض ، شرع في بناء المسجد على
 عادة المسلمين في تخطيط الدائن الجديدة . قال ابن خلدون
 « احتط عقبة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع وبنى
 الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكانت دورها ثلاثة آلاف
 باع وست مئة باع : وكل بناؤها في خمس سنين »
 ومن هذه القاعدة الجديدة ، أخذ عقبة ينظم شؤونه ،
 ويبحث بعمومه لتعاليم الاسلام ، وهداية البربر إلى سبيله .
 ولكن حدث في المشرق تعديل ادارى اوقف هذا
 التقدم إلى حين ، إذ عدل معارضة عن فكرة استقلال
 المغرب عن مصر ، فقد ولي حكم مصر مسلمة بن محمد ،
 وجمعه حكم المغرب — مع الصلاة والخراج — واستمرت
 ولاية مسلمة هذا خمس عشرة سنة ، وكان لمسلمة مولى
 اثير لديه اسمه ابو المهاجر ، فأرسله إلى افريقية واليا عليها
 وعزل عقبة بن نافع ! !

وكان هذا الحادث مفاجأة غير سارة للقائد القديم
عتبة بن نافع ، وزاد في كربه أن أبا المهاجر أساء إليه ،
واستخف به ، ولم يحفظ له مكانه ، ولم يرع له سابق جهاده
فرحل عتبة الى المشرق غاضبا ليلقى معاوية بن أبي سفيان
ويبته شكواه . . . وما زاد في احزان عتبة أن هذا الولي
الجديد زيادة في التنكيل به أدخل مدينة القيروان واتخذ له
مدينة جديدة حتى لا تكون علما على فضل سلفه . .

وانتهز البربر فرصة هذا التبديل ، فجمعوا جموعهم
تحت امرة قائد باسل من قوادهم كلف نصرانيا اسمه
« كسيلة » ، وزحف لمهاجرة مدائن المسلمين وتخلص بلاده
من حكم العرب . وكان ابو المهاجر فطنا حذرا ، فتقدم
إلى تلسان وعبا جيشه ، وقابل كسيلة ، وتمكن من هزيمته
وأسره ، فأسرع زعيم البربر إلى التظاهر باعتناق الاسلام
حتى يشجعو من الهلاك . فأبقى القائد الاسلامي في معسكره
وقبل اسلامه .

أقام عقبة بن نافع في المشرق زمنا غير قليل ، وكان معاوية بن أبي سفيان مشغولا بإثبات ولاية المهدي لابنه يزيد . ووافقت معاوية منيته ، إلا أنه كان قد وعد عقبة بإعادته إلى عمله ، ففقد يزيد هذا الوعد ورد عقبة إلى إفريقية واليا ، مستقلا كما كان في أول أمره .

واستبقى عقبة أبا المهاجر - سلفه - في معسكره حتى لا يسرع إلى المشرق ويدس له عند الخليفة ، ثم أعاد العاصمة إلى القيروان كما كانت ، ونظر في هذه الاغارات المتتالية من البربر ، ورأى أن يضع لها حدا فاصلا بأن يجتاح بقية الشمال الإفريقي ، ويوطأ بخيله بلاد البربر جميعا . . .

جمع عقبة جيوشه ، وقرر البدء في الجهاد حتى تدخل إفريقية كلها تحت راية الاسلام ، واختار من رجاله شخصا قذا في فطنته هو زهير بن قيس ليكون خليفته في القيروان ، ويواصل بالامداد كلما احتاج اليها ، وسار على

بركة الله ، وفي ركابه كسيلة أمير البربر ، وابو القلم . . .
غريمه القديم

وكان التوفيق من نصيب عقبة في غزوه الجديد ،
فاجتاح ما بقي من شمال الاطلس ، ونازل قبائل البربر في
طريقه ، وانزلها على حكم الاسلام ، وظل مستمرا في زحفه
لا يتلفت الى وراء ولا يفكر في عودة حتى وصل الى
طنجة . . .

وكان حاكم طنجة وقتها الكونت جوليان
(Count Julian) ومن حسن الحظ أن مؤرخي العرب
القدماء كانوا ينطقون اسمه نطقا صحيحا فيقولون عنه يليان
وقد كانت لهذا الرجل دخل كبير جدا في فتح
الاندلس فيما بعد ، وسيرد اسمه كثيرا ..

كان الكونت يليان فطنا ، فلم يشأ أن يعاند هذه
القوة الطاغية الزاحفة ، وقرر أن يتقدم مع عقبة صلحا على

أن يؤدي له جزية معلومة ، وأظهر النصيح للمسلمين
والطاعة لهم ..

وفي طنجة وقف عقبة موقفا خطيرا في تاريخه وتاريخ
الاسلام . فقد شاهد جبال اسبانيا تتراءى له عن بعد ،
واخذ يفكر في اقتحام المضيق ، وفتح « الجزيرة الاسبانية »
ويشاور من حوله من رجاله .. وكان كلهم راغبيا في
استمرار الجهاد ، فقد ذاقوا حلاوته ، ونسوا به هذه
الخلافات والحن التي كانت تلم بهم كلما استقروا في وجه
من وجوه الارض ..

الا أن السكونت يلبان نصيح لعقبة ألا يفامر هذه
المغامرة حتى يأمن الأرض من ورائه ، فلا تزال في أفريقيه
قوى بربرية لم تخضع له ، وهي كثيرة الحرص على حريةها ،
كثيرة الشغف بالغارة والنهب ، فإذا هزح إلى أوروبا
من أفريقيه فقد تقطع عليه طريق العودة وطريق الامداد
وهذا الرأي ظهر الفطنة والسداد . ولا يهمننا كثيرا

أن نعلم إذا كان صادرا من هذا الأثير القوطي عن حرص
على مصلحة المسلمين أو حرص على مصلحة قومه القوط
الغربيين من حكام اسبانيا .. فقد كان في الأخذ به تجنب
خطر واضح ...

سأل عقبة عن أما كن هؤلاء البربر ، ومكان اقامتهم ،
فدله يبيان على أرضهم ، وفي مكان مرا كش اليوم ،
فانحدر عليهم من طنجة ، ودخل بلاد السوس ، واقتحم
عاصمتهم (قصر فرعوز) وظل يتنقل في بلادهم حتى وصل
الى صحراء لتونة ، ثم اتشى غربا حتى وصل الى ساحل
المحيط الاطلنطي .. هذا المحيط الممتد الفسيح ، الذي
لم تكن لعقبة فيه بغية ، وكان أقصى الأرض غربا ...

وقف عقبة على شاطئ المحيط محتطيا فرسه ، وتنفس
نفسا طويلا ، عجب فيه هواء هذا الماء المالح ، وأخذ يحرق
في هذا الخلق العظيم من الماء ، ثم تلفت وراءه ، فاذا هو يرى
حيثه ، ينظر إلى صفحة المحيط التي تفرق السماء في اطرافها

البعيدة ، لا يتكلم منهم أحد ، ولعلمهم تذكروا وهم في هذا
المكان تلك البقعة التي أنحدروا منها صبيانا ، وسلخوا
شبابهم في هذه القارة يجاهدون ، وهذه هي الكهولة تدرّكهم
وقد وصلوا إلى أقصى الغرب من حدود القارة التي لا
حدود بعدها ..

وقف عقبة مع صحبه ساعة ينظرون ويتأملون ، ثم
استدار إليهم وقال لهم « ارفعوا أيديكم .. ارفعوا أيديكم ..
وقال : اللهم اني لم اخرج بطرا ، ولا أشرا ، وانك تعلم
انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين . وهو ان
تعبد ولا يشرك بك شيء . اللهم انا معاندون لدين الكفر
ومدافعون عن دين الاسلام . فكن لنا ، ولا تكن علينا
يا ذا الجلال والاكرام . »

ويظيب لنا أن نقف عند هذه الكلمة الخالدة التي
ألقاها عقبة على جيشه الفاتح المظفر ، والتي أكد فيها أن
رسالة قواد الاسلام ، انما تشبه رسالة الاسكندر المقدوني

الذى أراد أن يجمع الدنيا كلها تحت علم واحد ، حتى
يسودها السلام والأمن ولا يتأذى بعضها ببعضاً بالخصومة
والعداوة المستمرة (١) ؟!

أن يعبد الله لا يشرك به شيء . . . أن ينشر دين
التوحيد ويسود ، وعندها يسود السلام ، ويطمئن الناس
وتزول بينهم الأحن والفتن . . . فلقد كان اختلاف العقائد
ولا يزال سبباً في اختلاف العقليات وطرائق النظر الى
الأشياء والأشياء . . . وكثيراً ما تطور هذا الخلاف ، فأشعل
الحروب ، وأفنى الشعوب وصبغ وجه التاريخ باللون الأحمر
.. لون الدم القاتل

كان عقبة اذن يفهم في رحلته هذه الكبرى مع جيش
التوحيد أنه يؤدي رسالة ، وأنه لا يغير على القبائل والأمم
لأنه طالب جاء ، أو مقيم . . . وإنما كان يطلب ، أن

(١) راجع تفسير ابن كثير عن ذي القرنين الذى قال عنه في احدي
رواياته انه باني الاسكندرية وفاتح الاقطار — في شرح سورة الكهف

« يا بئس الله لا يشرك به شيء » .. ولهذا فهو يدعو ربه ذا
الجلال والاكرام أن يكون معه لا عليه .

لقد كان دعاء ختمة صلاة .. وكان دعاء مستجابا . فقد
شاء الله أن يثمر جهاد هذا المجاهد الأول ، وأن يستقر
الاسلام بعد إحن وتضحيات في هذه الأرجاء ، فيكون
دينها منذ القرن الأول من الزمان لا انتشار الاسلام ، وسيظل
دينها حتى قيام الساعة .

يقول مريوط في مختصر تاريخه « وهكذا أكرمت
هذه الجيوش الشاطلي . الا فبقى كله من حدود النيل الى
المحيط الاطلنطي على أزقديت باطاعة لدولة خلافة . واذا استثنينا
أوروبا فان جميع الممالك ذات الشواطئ أصبحت تابعة لهذه
الدولة الجديدة في آسيا . ومع أنه لم يعض على وفاة النبي
محمد أكثر من سبعين سنة ، الا أن علم الاسلام ارتفع عاليا
خفاقا خلال آسيا حتى بلاد الإغريق من ناحية ، ومن
الناحية الأخرى ظلل أفريقيا حتى جبل طارق . وعند

هذا المضيق أقام العرب في ربوع الصحراء يلقون نظرات طويلة
على شريط الماء الممتد أمامهم ، والذي يفصل عنهم القارة
الوحيدة التي لم تدن لهم بعد .. وهي أوروبا »

...

عاد عقبة من غزوه يقصد عاصمته بعد أن طوف مع
جيشه في الأرض هذه الطواف الطويل ، وكانت تنبذ
له في عودته بعض جموع البربر فكان يهزمها ، ويقر الأمن
في ربوعها .

ويذكر القراء إذا ذكرنا أن من بين من استصحبهم
عقبة في زحفه « كسيلة » كبير البربر ، وأبا المهاجر الحاكم
السابق لأفرقية . يقول المؤرخون أن عقبة أساء معاملة
كسيلة في عودته ، وكلنه مرة بأن يسلم شاة مذبوحة ، فدفعها
إلى غلمانه ، إلا أن عقبة أبي عليه إلا أن يتم العمل بنفسه
فقام كسيلة مغضبا ، وفقد ما طلب منه ، وكان كلما دس يده
في الشاة مسح ببلحيته ، وعلم العرب أن هذه إشارة إلى

الحقد وطلب الانتقام مصطلح عليها بين البربر . وبلغ أبا
المهاجر في معتقله مأحل بكسيلة وما دلت عليه اشارته .
فبعث إلى عقبة ينهأ ويقول له كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعد إلى رجل
جبار في قومه ، وبدار غزه ، حديث عهد بالشرك
فتستفسده ١ وأشار عليه بأن يتوثق منه ، وخوفه من عاقبة
أمره . وموأء صحت قصة الشاه أو لم تصح (١) فنحن نفهم
منها أن زعيم البربر لم يكن مخلصا في طاعته وأنه كان يبيت شرا
للإسلام ..

ولما اقترب عقبة من القيروان أشار إلى الجيش بأن
يسبقه إلى العاصمة ، وتعمل هو في الدخول إلى مدينته
وانتهز كسيلة هذه الفرصة . فرصة انفصال الجيش وبقاء
عقبة مع نفر من كبار أعوانه ، وراسل أتباعه من البربر

١ أشار موبر في تاريخ الخلافة إلى هذه القصة

وَأَعْطَاهُمْ تَعْلِيمَاتِهِ وَمَا لَبِثَ عَقْبَةُ وَمِنْ مَعَهُ - وَكَانَ غَدَدُهُمْ مَحْوً
ثَلَاثَ مِثَّةٍ أَنْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ مُحَاصِرِينَ بِمَجْمُوعٍ مِنَ الْبَرَبْرِ
فِي مَكَانٍ بِالْجَزَائِرِ قَرِيبَ بَسْكَرِهِ بِسَعْيٍ بِتَهْوِدةٍ . وَأَسْرَعَ
عَقْبَةُ فَاطَلَقَ أَبَا الْمَهَاجِرِ مِنْ أَسْرِهِ . وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْجُو
سَرِيعًا وَيَذْهَبَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ لِسَكِّي يَدِيرُ أُمُورَهَا مَعَ قَيْسِ
ابْنِ زُهَيْرٍ . فَهَمَّ هُنَا هَالِكُونَ لَا مُحَالَةَ ، وَلَا يُؤْمِنُ الْحَالُ أَنْ
يَزْحَفَ الْبَرَبْرِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِلَى الْعَاصِمَةِ وَيَأْخُذُوهَا عَلَى غَفْلَةٍ
مِنْ أَهْلِهَا . وَلَكِنَّهُ أَبِي التَّجَاعَةِ وَأَصْرَ عَلَى الْإِسْتِشْهَادِ ..
يُرْوَى كِتَابُ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ هَذِهِ الْقِصَّةُ الْفَرِيدَةُ فَيَقُولُ
« كَانَ أَبُو الْمَهَاجِرِ مُوْتَقًا فِي الْحَدِيدِ مَعَ عَقْبَةٍ . فَزَحَفَ
عَنْهُ عَقْبَةُ إِلَى كَسِيلَةٍ ، فَتَنَحَّى كَسِيلَةً عَنْ طَرِيقِهِ لِيَكْثُرَ جَمْعُهُ
وَيَتَعَبَ عَقْبَةُ ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو الْمَهَاجِرِ ذَلِكَ تَمَثَّلَ قَوْلُ
الشَّاعِرِ (١)

٢ هو أبو محجن الثقفي الفارس المشهور في فتوح العراق. وقد أورد
ابن الأثير هذه الرواية أيضا

سقى حزننا أن تطمن الخليل بالقنا
واترك مشهودا على وثاقنا
إذا قت عناني الحديد وأغلقت

مصارع من دوني تصم المناديا
فباغ عقبة ذلك ، فاطلقه ، وقال له . الحق بالسلحين
فقم بأمرهم وأنا اغتم الشهادة . فلم يفعل وقال : وأنا
أيضا أريد الشهادة . فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم
وتقدموا الى البربر وقتلوهم حتى قتل المسلمون جميعهم .
ولم يفلت منهم أحد . وأمر محمد بن أوس الانصارى في
نهر بسير

اذن قتل عقبة ، وقتل معه غريمه القديم في ساحه
الاستشهاد . واذن فقد تعاقب الاثنان في الثرى مع بقية
الصحابة والتابعين ، والتصقت جسومهم بالارض التي طالما
داستها أقدامهم ، وسمعت فيها صليل سيوفهم ، وتكبير
محتاجهم ، وصهيل خيولهم ...

ما أروع هذا الموقف وما أجمله .. وما أبسل هذه
الحفنة من المجاهدين الصادقين ، وهم يعلمون أنهم ملاقو
ربهم عما قليل ، فلا يهن لهم ساعد ، ولا تضعف منهم نفس
بل ان أحدهم ليفكر في أمر الدولة ، ويدفع غريمه الى أن
يفر ، ويقوم مقامه في حكم المسلمين . ولكن صاحبه يأبى
ولمح ، ويرى ما عند الله خير وأبقى ، فلطعنة يصيب
بها عدوه ، وأخرى تصيبه أحب اليه من كل شيء .. لقد
أقبلوا جميعا على الموت ، وهتاف كل واحد منهم . عجلت
إليك رب اترضى !!

مات عقبة بن ذافع في سنة ٦٢ ، وكان قد تولى أول
عمل في إفريقيه ، وهو حكم برقة في سنة ٢١ فيكون قد أنفق
في الجهاد في سبيل الله أربعين سنة وسنة ، لم يكل فيها ولم يعمل ،
حتى وافته منيته على هذا النحو الفريد من البطولة الخالدة
على وجه الزمن

أربعون سنة في الجهاد المستمر .. ما أطول هذا

الأمد ، وما أحفله بالآيات البينات ... وأنه ليكفى أن
تصور أن أبطال المشرق من أمثل خالد بن الوليد والمثنى
وعمر بن العاص وسعد وغيرهم إنما كانوا يحاربون في أرض
قرية من دار الخلافة ، وكان لهم من خلفاء رسول الله خير
ناصر وعون . . . يتلقون أوامرهم ، ويتلقون أمدادهم ،
وما رزقهم ربهم من شجاعة وبصيرة . ويسندون ظهورهم
بالعرب جميعا ... أما هؤلاء في أقصى الغرب الأفريقي ..
أما عقبة بن نافع وصحبه ، فما أبعدهم عن دار الخلافة
ومستقر السلطان ، أن الشقة بينهم وبين عواصم الخلافة
بعيدة . وأنهم ليضربون في الأرض ، ويسرون في
مناكبها فأنحين غازين يهديهم إيمانهم بالله ، وهل كان الواحد
منهم يطعم إلا في إحدى الحسينيين : أما النصر ورفع لواء
الاسلام . وأما الاستشهاد والدخول في رحمة الله ...
قال ابن خلدون : « واجدات الصحابة رضي الله
عنهم . أولئك الشهداء - أعني عقبة بن نافع وأصحابه

بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد (عهد تاريخه) وقد
جعل على قبورهم أسنمة ثم حصصت . واتخذ على المكان
مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات ومظان
البركات . بل هو أشرف مزار من الاجداث في بقاع
الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة
والتابعين الذين لا يبالغ أحد مد أحدهم ، ولا نصيفه . . .
واذن فقد ذهب آخر الصحابة جملة لا مفرقين ،
وبقى على جندهم وأعوانهم أن يستأنفوا الجهد من جديد . .
فأذا هم فاعلون ١٢

وكان مصرع عقبة وصحبه نكبة على الفتح الافراقى
تالت بعده نكبات فادحات . فقد قوى ساعد البربر ،
وتجبراً كبيرهم كسيلة ، وزحف الى القيروان في وقت فقد
المسلمون أميرهم . بل امرأهم وابطالهم ، ودب العصيان

في الجيش ، ولم يدعن بالطاعة لخليفة عقبة في قرطاجنة -
زهير بن قيس ..

عم الاضطراب القيروان عندما جاءها نبأ زحف
البربر ، واسرع زهير إلى المسجد الأكبر . ودنا فيه الناس
فاجتمعوا . فقال لهم : يا معشر المسلمين . . ان اصحابكم
قد دخلوا الجنة . فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم
ولكن الجنة لم تكن طولا . القاعدین مطمئا سريعا .
يخفون اليه كما خف اليه عقبة ومن معه . بل نادى في الجند
مناد ألا طاقة لكم بما دهمكم من أمر البربر وانتم قلّة لن
يقضى عنكم أحد شيئا .. ثم أذن فيهم بالرحيل . فاستجابوا
خفافا وثقلا . ولم يمض إلا ايسر الوقت . حتى وجد
زهير بن قيس البلوي نفسه وحيدا في القيروان لا يحيطه
إلا نفر من آل بيته ..

ولم ير زهير بدا من الرحيل بدوره على أحسن
شروط يمكن أن يحصل عليها ، فمضت الرسل بينه وبين

كسيلة . وانتفا على أن يخلى أولها القيروان . لينسحبها الأمير
البربري ، على ألا يؤذى مسلما ، وأن يؤمن الأمر المسلمة
للقيمة بالمدينة على دينهم ومعاشرهم (١) . وقبل كسيلة
هنا الشرط ، وارتد زهير عن تونس كلها إلى بركة ، أول
قواعد الاسلام في افريقية بعد مصر

- ٥ -

أيام عبد الملك وهريرة الطائفة

تلفت زهير في مقامه بركة إلى المشرق حيث تستقر
خلافة المسلمين عسى أن يأتيه من عندها مدد ، ولكن
المشرق كان عنه في شغل أى شغل . .
لقد مات معاوية رأس الأمويين ، وخليفتهم القادر ،
وتولى من بعده ابنه يزيد . فتارت فتنة العلويين ، وذبح
الحسين في كربلاء . وعم المسلمين قلق كبير . . وحدثت

(١) Muir P 341

في عهده وقعة الحرة التي حاصرت فيها مدينة رسول الله
وخربت ونهيت ثلاثة أيام كاملة . وكان عبد الله بن الزبير
الذي ذكرنا بلاءه السابق في حروب إفريقية طامعا في
الخلافة . فأعلن نفسه خليفة في مكة . وسارت اليه جيوش
يزيد تحاصره وتقاتله . وانقضى حكم يزيد وابن الزبير
لا يزال يقيم الحجاز ويقعده . والعراق ساخط فثار لمصرع
الحسين . والشام نفسه لا يقر له قرار . وتولى الخلافة
مروان بن الحكم . وما أن انتهى من فتح الشام حتى
وافته منيته وتولى من بعده عبد الملك بن مروان . الذي
أضيفت الى أعبائه في آسيا وتوراتها هذا المعبء الجديد
الثقل . وهو انتفاض البربر . وانسحاب المسلمين من
الشمال الا فربقى كله . وبقاؤهم في برقة ينتظرون العون .
وعين لهم صوب المشرق تترقب . وعين لهم صوب المغرب
تخذر وتتوجس ..

وكان عبد الملك بن مروان كفاءا جديرا بهذه المهمة

التي واجهته . فان له من حزم شيخ الامويين معاوية
للشيء الكثير .. بدأ فاختار لولاية البلدان وقيادة الجيوش
اقدري رجال عصره . فاستخدم الحجاج وعبد الله بن زياد
والهلب بن أبي صخرة . وما لبثت الامور بعد حروب وفتن
قاسية أن استقرت في المشرق من جديد . وعادت الحياة
الى هدوء نسبي هو الذي عرفه المسلمون أيام معاوية ..
وبقي أمر افريقية . وما كان عبد الملك ليهملها . حقيقة
اقضى منذ مات عقبة بن نافع وانسحب المسلمون من
القيروان سبع سنين - من عام ٦٢ الى عام ٧٩ هـ . إلا ان
البربر لم يكونوا طامعين في أكثر من الاستقلال ببلادهم
يعاونهم الأغريق ، والامداد التي كانت ترد عليهم من
بزنطة ، واخلطت القوط الهابطة عليهم من ايطاليا واسبانيا
ولو أنهم انتهزوا فرصة هذه الفتن الجراء في قاعدة الخلافة
وما جاورها من امصار ، وزحفوا صوب طرابلس ومصر
لما وجدوا مقاومة تذكر . ومن اين تأتي المقاومة ورأس

الدولة نفسها مصاب بصدع شديد

كاتب عبد الملك بن مروان زهير بن قيس يسأله عن حقيقة
الحل في إفريقية ، فأنبأه وطلب منه امداداً وأموالاً ، تكفي
لتحطيم جيوش كسيلة البربري . ولبي الخليفة ما طلب منه
هذا الرجل المخلص ، وسير له حملة قوية معدة احسن اعداد
فقادها زهير ، وزحف صوب القيروان ، فلقبه كسيلة غير
بعيد من العاصمة ، ودارت بين الفريقين معركة حامية
كثب النصر فيها لزهير ، وقل زعيم البربر ، وكبار المقاتلين
منهم ، وفنى الكثير من فرسانهم ورجالهم ، وتفرقت جموعهم
في كل وجه ، وعادت اعلام الخلافة ترفرف من جديد على
القيروان وما جاورها من المدن بعد غيبة طالت سبع
سنين كاملة .

رأى زهير أنه نأر لعقبة بمقتل كسيلة وكان رجلاً
زاهداً تقياً ، فلم يشأ أن يقيم من نفسه حاكماً على إفريقية ،
وآثر أن يترك مكانه خليفة له ، ويدع جيشه في القيروان

ويعود هو الى برقة ، يقيم بها حتى اذا دعاه داعي الجهاد
لي طائعا . .

ويظهر أن داعي الجهاد كان ينتظره في هذه الرحلة
فما أن وصل الى برقة ، وكان في قلة من الاعوان ، حتى
وجد بزنطة قد سیرت أسطولا اغريقيا اغار على المدينة
وأمر عددا غير قليل من المسلمين .

وكان القتال عبثا ، فلم تكن مع زهير قوة يعصد بها هذا
الجمع الكثيف من جنود قيصر . ولـمـكنه لم ينسحب كما
انسحب من القيروان عقب مقتل عقبة ، وآثر ان يلحق
بالشهداء الصالحين . فأوصى من ينجو من صحبه أن يسرع
بأنباء هذه الغارة إلى عبد الملك بن مروان . وحزم
أمره وألقى بنفسه في اتون الروم ، يريد أن يستنقذ منهم
أسرى المسلمين . ولكن قوة الروم كانت اكبر من مقاومته
فقتل . وجل من معه . ومن نجا سار مسرعا الى دمشق
بأنباء هذه الكارثة الجديدة

لحق زهير بصاحبه عقبه في موقف من مواقف البطولة
الفريدة ، وهكذا أضيف الى قائمة الشهداء في افرقية اسم
لامع ، لرجل لامع ، عاش مجاهدا ، وقضى ساعات
الحياة لم يكف عن النضال ، ولم تنصرف نفسه الى مطمع من
مطامع الدنيا .

وهكذا كان شأن هؤلاء المجاهدين الأول . كانت
استهانتهم بالحياة . وايمانهم بالله ، وزهدهم في الدنيا .
كانت هذه الصفات هي القواعد والاسس التي بنيت
عليها امبراطورية المسلمين ، وأحيطت فيما بعد بسياج من دمائهم
وأشلائهم التي تناثرت في كل بقعة من بقاع الأرض
ولا هتاف للمستشهد الا الله أكبر . ولا نشيد له الا
قوله :

عجلت اليك رب لترضى

...

حزن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على مصرع

زهير . وزاد في همه أن الانباء جاءت بحركة جديدة يقوم
بها البربر . وليكنها غريبة كل الغريبة وذلك أنهم بعد
مصرع كبيرهم كسيلة . استأروا لقيادتهم سيدة جريئة
شجاعة لم نعرف عنها أكثر مما ذكر مؤرخو العرب . وهو
أن اسمها الكاهنة . « والكاهنة » في الواقع ليس اسماً
وليكنه وصف لما كان لزمامة الدينية . لدى كانت تحمله
هذه المرأة من نفوس البربر .

أقامت « الكاهنة » في جبل اوراس . وبسطت
سلطانها على قبائل البربر في صفوف الاطلس وفيما وراء الاطلس
من صحراء وانتشرت عنها أوهام غريبة ودبت بوجودها
الحرارة الى نفوس البربر فنفضوا عنهم ابن الجديد وراحوا
يعاودون حياتهم في ظل المجوسية أو في ظل نصرانية يرنطة الرقيقة
واقبلت جموع كثيرة من الاغريق ومن الرومان والقوطوا حدثت
قرطاجنة . مدينة الشمال الافريقي العجيبة ، وراحوا يسرفون
في وصل هذه الحياة الجديدة ، بحياتهم القديمة قبل غزو العرب

ونظر أمير المؤمنين عبد الملك في الوصيلة التي يتقد
بها الثمال الا فربقى من هذه الثورات ولاكن حروب
ابن الزير عاقته عن عمل شيء . فلما فرغ منها اختار من
رجال حسان بن النعمان الغساني وأعد له جيشا ضخما وأمره
بالمسير الى القيروان ، وبعث له بالامداد ، فصدع حسان
بالأمر ، وبلغت جملة جيشه أربعين ألف مقاتل . وهو
أكبر جيش سير الى هذا الوجه من وجوه الأرض منذ
كانت الفتوح . وكان مسير حسان سنة أربع وسبعين
هجرية (١) وما أن بلغ القيروان ، حتى اتخذها قاعدة
أعماله الحربية ، وراح يدرس الموقف بعناية

يقول السلاوى في الاستقصا . « لما دخل القيروان
سأل الافارقة عن أعظم ملوكهم . قالوا صاحب قرطاجنة
وهي المدينة العظمى . قرينة روما وضررتها . واحدى

١ في كتاب الاستقصا وفي الواقدي أن المسير كان سنة ٦٩

عجائب الدنيا • وكان بها يومئذ من جموع الفرنج أم لا تحصى
ولم يكن القواد السابقون قد اقتربوا من قرطاجنة رهبة لها
واستصفا بالأمورها (٢)

وتنهياً حسان الاستيلاء على هذه العاصمة القديمة العريقة
فرحف إليها وحاصرها وضيق عليها الخناق وزاد في صعوبة
مهمته أن الاغريق كانوا يساعدون حاميتها بأسطولهم البحري
ولكن حسانا اشتد على هذه الحامية • واقتحم أسوار
المدينة • فنجح عدد من الاغريق بالتجائهم الى الاسطول
ووقع في يد حسان الثائرون من البربر ومن عجز عن
اللدق بالاسطول من أحباط الاغريق والاطالين وغيرهم
فنكل بهم • وترك في المدينة حامية صغيرة ثم عاد الى
القبروان • وقبل أن يصل الى العاصمة الاسلامية جاءته
الانباء على عجل بان جموعا من بربر البادية احتلوا المدينة

٢ ابن الاثير في حوادث سنة أربع وسبعين

وخلدوا حاميتها فرجع منيظا محنتا • وقد بيت في نفسه
أمرا خطيرا هو هدم قرطاجنة • وقد تم له ما أراد
يقول نفس المصدر : « افتتحها عنوة ، وأمر بتخريبها
واعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأس الدابر • ولم يبق
بها الا آثار خفية تدل على ما كان بها من عجيب
الصناعة واحكام العمل • وبانقاضها عمرت مدينة تونس كما
في القاموس » وهكذا طويت الى الأبد صفحة مدينة
كانت محورا من محاور الصراع الهائل بين افريقية وأوربا
(قرطاجنة وروما) كما انعدت لها زعامة التجارة وسيادة
البحار حينما من الدهر غير قليل (١) ، وأنجبت من أبطال
القتال مالا تزال سيزم غرة في سير البطولة على مر الزمان.
ويظهر أن القائد المصري حسان بن النعمان ، كان
مضطرا الى أن يصنع بالمدينة القديمة هذا الصنيع . فقد كان
موقعها على البحر ، وخصامة حصونها ومكائنها في نفوس

١ راجع قصة الكفاح بين قرطاجنة وروما للاستاذ توفيق الطويل

الافريقيين والاغريق والرومان ، سبباً في اصابة الفتح
الاسلامى لهذه المناطق بتكسات عنيفة ، ردتة على أعقابها
أكثر من مرة حتى آوى الى برقة .. وعلى الرغم من هذه
الضرورات الحربية ، فلايسعنا إلا أن نأسف على زوال
هذه المدينة من صفحة العمران ، كما أسف مؤلف كتاب
الاستقصا في عبارته الساذجة البسيطة .

لم يقلل تدمير قرطاجنة من حدة البربر والاغريق في
الدفاع . فقد تجمعوا مرة أخرى على الشاطئ عند بنزرت
وهبوا جيشاً ضخماً ، تاهب للنار من هذه الهزائم المتتالية .
فسارحسان الى هذه القوة الجديدة ، والتقى ، وكان النصر
حليفه ، ففرقت جموع الأعداء مرة أخرى بعد أن
أصابهم بهزيمة منكرة ...

وكان قد بلغه نبأ هذه « الكاهنة » التي اجتمعت لها
طاعة البربر ، والتي تألب على المسلمين الفتن والثورات ،
فقرر أن يسير اليها في معتصمها بالجبل .

يروى ابن الأثير هذا المسير بقوله :

« لما صالح الناس قال حسان : دلوني على أعظم من
بقي من ملوك البربر . فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف
بالسكاهنة . وكانت تخرهم بأشياء من الغيب ، ولهذا
سميت السكاهنة . وكانت بربرية وهي بجبل أوراس .
وقد اجتمع حولها البربر بعد مقتل كسيلة . فسأل أهل
افريقية عنها فغضبوا محلها وقلوا له إن قتلتها لم تختلف
البربر بعد هاءليك . فدار إليها . فلما قاربها هدمت حصن
« باغاية » ظنا منها أنه يريد الحصون . فلم يبرح حسان
على ذلك ، ودار إليها . فالتقوا على نهر نيني ، واقتتلوا
أشد قتال رآه الناس ، فانهزم المسلمون وقتل منهم خاق
كثير . وانهزم حسان وأمر جماعة كثيرة . أطلقهم
السكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي . وكان شريفا
شجاعا فاتخذته ولدا . »

ولم تكن هذه الهزيمة في الحسبان . فقد زلزلت نفوذ

الاسلام من الشمال الافريقى كله • وجرات السكان على
الانتفاض • كما قوى نفوذ الكاهنة وعظم شأنها إلى حد
خطير • للمرة الأولى تهزم جيوش المسلمين مجتمة على
هذا النحو • للمرة الأولى يقع فى الأمر عدد كبير من
المسلمين • ولم ير حسان بدا من أن يتراجع إلى الوراء
سريعا حتى لا يقطع عليه خط الرجعة • فأخلى القيروان
نفسها • وانسحب إلى برقة • وبذا انحسر الاسلام من
جديد عن بلاد الأطلس كلها ••

ويظهر أن الكاهنة رأت فى هذا النصر الذى نالته
سببا فى أن تستبد بأمور الناس • كما أن الفكرة التى أوحى
لها بهدم أحد الحصون قبيل مسير حسان إليها ، ألحت عليها
فى أن تهدم المدائن والبلدان جميعا • فهى فى رأيها السبب
فى طمع هؤلاء الغزاة والبقط التى يدور عندها القتال
فأصدرت أمرا بتخريب كل المدائن ، وهدم الحصون
والبلدان جميعا ، وقالت فى تبرير عملها « يريد العرب البلاد

والذهب والنضة . ونحن أنما نريد المزارع والمراعى . ولا
أرى إلا أن أخرب افريقية حتى يأسوا منها » وأرسلت
وحدات جيشها في كل مكان ، فعلوا البلى هدماً وتخريباً
وازالوا عنها أهلها ، فأصبحت افريقية بنكة افدح من نكة
هدم قرطاجنة . وأصاب الناس فزع شديد وحزن بالغ ،
وعمنوا ملك العرب ، الذين لا يبلغ بهم العسف - مهما كان
شأنهم - ما يبلغ بهذه الحاكمة الطاغية

وكان حسان مقبلاً بيرة ، وقد أشيد فيها - على عكس
الكاهنة - الحصون المتينة ، واتخذها خط الدفاع الأول
عن مصر حتى لا تغير عليها الكاهنة ، أو أى قائد من
قواد الاغريق أو البربر فتهدد مصر بخطر عظيم . وقد
عرفت هذه الحصون باسم منشئها وظلت بعده زمناً طويلاً .
وذكر ابن الاثير انها كانت باقية إلى أيامه

واخذ حسان في مكانه الجديد يراقب الحوادث
بعناية . وقد جاءت له الانباء بما صنعت الكاهنة وبتدمير

البربر الشديد . كما أن هذا الأسير العربي الذي استبقته
عندها كان يوافيه سرا بالأنباء . ويظهر أنه حدثت وحشة
وجفاء بين ابني الكاهنة وبينها . فقد طمعا في الملك دونها
كما حرصهما هذا الأسير العربي على الاقتراض عليها . . .
واتتهز حسان الفرصة ، فزحف بجيش جديد على إفريقية
واجتاح المناطق في سهولة ، لأن أهلها كانوا راغبين عن
حكم الكاهنة . بل زاد أمره نجاحا أن انضم إليه أبناء
الكاهنة . ومع هذا لم يقل من عزم هذه المرأة الغريبة ،
فقد ألقت بحسان وصعدت له في معركة مخيفة ، خيل للناس
أن القيامة قد قامت فيها من هول القتل وعنف الصراع .
وشاء الله في نهاية الأمر ألا يخذل حسان بن النعمان مرة
أخرى ، فنصره على الكاهنة ، ولحقها بعض جنده فقتلها .
ورأى البربر بعد هذه الحروب الطويلة القاسية أن يهادنوا
المسلمين وخصوصا أن محور حركتهم قد ذهب ، فعرضوا
الصلح على حسان ، فلم يقبل الصلح إلا إذا أمدد البربر من

مقاتلتهم باثني عشر ألف رجل ، يضمهم إلى جيشه ،
ويقومهم في الاسلام ، ويسيروا مع المسلمين في غزوانهم ..
وقد قبل هذا الشرط . ورأى حسان من الفطنة أن
يستعين بكبار البربر ، فاختار ابني الكامنة لقيادة هذه
القوة الجديدة ، وعاملها معاملة طيبة ، وبذا تألف قلوب
القوم جميعا ، ودخل القروان والناس جميعا تتنفس - مرة
أخرى - نفس الراحة ..

وفي القروان ، بدأ حسان يتخذ هذه العاصمة دار
استقرار ، فأنشأ فيها الدواوين وأقام اللباني العامة ، وبدأ
يحصل الضرائب ، وينفذ شريعة الاسلام في تحصيل
الجزية على الكنايين من النصارى - وهم قليل من البربر
وبقايا الاغريق والقوط والرومان .. وأخذ الاسلام يفشو
في قبائل البربر

ورأى عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين ، أن
اعظم خطر يسبب المناعب في افريقية هو اسطول بزنطة

الذى يحمل الامداد ، ويغير على الشواطىء ، فطلب
من حسان أن ينشئ داراً منعة (توسعات سفن) في
تونس ، وأن يهيئ لها العمال لبناء أسطول إسلامي دائم ،
وأن تكون تونس كلاسكندرية ، ثانية موافق الامبراطورية
الاسلامية

وظل حسان مقيماً بالقيروان ، يتابع هذه السياسة .
سياسة الهدوء والاستقرار ، وعاد الأمن والهدوء إلى نصابه
فقد اختلف الرواة في سنة خروجه من القيروان
فذكرت روايات بين سنة سبع وسبعين وتسعة وثمانين ولم
تعرف مدة ولاية حسان هذا على إفريقية على وجه التحقيق
ولكنه على كل حال مكث حتى انتهى عهد عبد الملك بن
مروان ، وكانت وفاة عبد الملك سنة ٨٦ هـ

البحر وراءكم...

« ان الله احل لكم هذا المحل ليعز دينكم ويذب
بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ،
ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد المال
استفاضة ، والعدو قوما . ووعده نبيه صلى الله عليه
وسلم النصر . بحديث صادق ، وكتاب ناطق . فقال :
هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
على الدين كله ولو كره المشركون . ووعده المجاهدون
في سبيله احسن الثواب ، واعظم الذخر عنده . فقال :
ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في
سبيل الله . ثم اخبر عن قتل في سبيله أنه حي مرزوق
فقال : لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل
احياء عند ربهم يرزقون ... »

من خطب الفتح أيام الوليد

موسى وطارو

مات أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بعد أن حكم
الامبراطورية الاسلامية ثلاثة عشر عاما وخمسة شهور .
وبعد أن أدى أمانة الحكم على أكمل صورة . فما نامت له
عين ، ولا فترت له همّة ، ولا تردد في رتق الفتوق التي
تفتحت في رقعة الدولة الاسلامية . فكانت جيوشه تطأ
الأرض في الشام والحجاز والعراق وخراسان والشمال
الأفريقي كله .

ولما انقضت أيامه خلفه ابنه الوليد بن عبد الملك ،
فوقف برثى أباه بقوله :

« أيها الناس . انه لا مقدم لما أخر الله . ولا مؤخر
لما قدم الله . وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما
كتب على أنبيائه وجملة عرشه الموت . وقد صار إلى منازل

الابرار ، ولي هذه الامة بالذى يحق عليه الله ، من الشدة
على المريب ، والذين لاهل الحق والفضل ، وإقامة ما أقام
الله من منار الاسلام وأعلامه ، من حج هذا البيت ،
وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله . فلم
يكن عاجزا ولا مفرطا .

« أيها الناس : عليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة . فان
الشيطان مع الفرد . أيها الناس : من أبدى لنا ذات نفسه
ضربنا الذى فيه عيناه (رأسه) ومن سكت مات بدائه »
وقد ورت الوليد عن أبيه حزمه وعزمه ، كما ورت
امبراطورية ذلل صعبها ، ونامت فتنها ، فكانت لديه
فرصة التوسع في الفتح ، مع التوسع في التعمير والانشاء .
فكان عهد الوليد بحق ، عهد إشراق وإنتاج في كل
ناحية من نواحي الحياة .

قدم عليه حسان بن النعمان والى افريقية وهادم
قرطاجنة بكثير من النفائس التى لم يشهد الشرق مثلها .

فسر بها الوليد سرورا كبيرا ، وأراده على أن يعود إلى
عمله فاعتذر . فأشار الوليد على والى مصر أن يختار لا فريقية
— وكانت في هذه الفترة تابعة لمصر — واليا من قبله
هو موسى بن نصير .

فمن هو نصير هذا ، ومن هو موسى ابنه ؟
الاقوال مضطربة غاية الاضطراب عن أصل هذه
الامرة . ففي كتاب « أخبار مجموعة في فتح الاندلس » (١)
ولى الوليد ، وثغر افريقية ، أم الثغور اليه . فدعى موسى
ابن نصير مولى بنى أمية . وأصله من علوج أصحابهم خالد
ابن الوليد رحمه الله من غير التمر ، فادعوا أنهم رهن ،
وأنهم من بكر بنى وائل . فصار نصير وصيفا لعبد العزيز
ابن مروان ، فأعتقه وبعثه وعقد له في سنة ثمان وسبعين
على افريقية وما خلفها »

والرواية هنا ظاهرة الاضطراب فقد عقد لموسى على

(١) طبع بمدريد (مجريط) سنة ١٨٦٧

ولاية افريقية في عهد الوليد . والوليد تولى الخلافة سنة
ست وثمانين ، وكانت ولاية موسى بعد هذا التاريخ
لا قبله كما ذكرت هذه الرواية . إلا أنه يفهم منها أن أسرة
نصير من أهل العراق ، وإنها كانت من سبي خالد
وفي فتح الطيب (١) : أن موسى بن نصير كان
عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى . ولم يهزم له جيش قط .
وكان والده نصير على جيوش معاوية ، ومنزلته لديه مكنة
ولما خرج معاوية لصفين أم يخرج معه . فقل له ما منعك
من الخروج معي ولي عندك يد لم تكاثني عليها . فقال :
لم يمكنني أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك
فقال معاوية : من هو . قال : الله عز وجل . فأطرق
معاوية ملياً ، ثم قال : استغفر الله ورضي عنه .
وفي ابن الأثير أن نصيراً — أبا موسى — كان على
جرس معاوية فلما سار معاوية إلى صفين لم يسر معه . .

(ثم أورد رواية فتح الطيب السابقة)

ومهما يكن أمر نصير وهل كان عراقيا نصرانيا كما
تقول الروايات، أو كان فارسيا مجوسيا أو لم يكن كذلك،
فقد أسلم وحسن إلامه، وشارك في سياسة ذلك العهد.
وحدث في سنة ١٩ هجرية، أي في عهد خلافة عمر
ابن الخطاب أن ولده ابن أسماه موسى. وقد شهد هذا
الوليد عهد عمر بن الخطاب، وتربى على مبادئ هذا
العهد وتقاليده. ولذا عد من التابعين. يقول ابن خلكان
« كان موسى بن نصير من التابعين. وروى عن عيم
الداري رضي الله عنه ».

وأدرك موسى في مطلع شبابه هذه الفتن التي أحاطت
بحكم عثمان بن عفان، فتفتحت نفسه للسياسة، ورأى أباه
يعمل لمعاوية، ويكون رئيس حرسه. ولكنه تجنب الفتنة
بينه وبين علي، واعتزل. ويظهر أن النجاة من محيط الفتن
الذي آثره نصير، لم يقنع ابنه كثيراً، فقد انضم بعد حين

الى عبد الله بن الزبير في ثورته ضد الامويين ، وغل بجواره ، ثم شهد معركة مرج راهط التي هزم فيها اليمينيون وهو معهم . وقد فر بعد الهزيمة ، فطلبه الخليفة وأراد قتله ، ولكنه استجار بعبد العزيز بن مروان فأجاره وشفع له عند مروان . ومن ذلك الوقت أصبح موسى مولى من موالى بني أمية .

وكتب له أن يتجنب هذه الاحزاب الثائرة ، وأن يسير في ركاب بني أمية ، حتى أتى عبد الملك بن مروان ولأه على أراضي البصرة ، فسار موسى في عمله بجهد لا ليعلم الخليفة ، ويعلم أهل هذا الاقليم ، ولكنه ليعلم نفسه فقد بدد مبلغا كبيرا من المال ، ألزمه عبد الملك بأدائه فأسرع الى مصر ، حيث كان يحكم مولاه القديم عبد العزيز ابن مروان ، واستجار به مرة أخرى . فأدى عنه عبد العزيز بعض المال المطلوب ، وشفع له في الباقي . ومنذ ذلك الوقت ظل موسى مقيا في مصر الى جوار عبد العزيز ، حتى سطم

نجمه مرة أخرى ، فصدر الأمر بتوليته أمانة أفريقية

...

تركنا أفريقية منذ حين وقد سار عنها واليها حسان
إلى الشرق ، ورفض أن يعود إلى عمله . وانتهز البربر هذه
الفرصة ، وتحركوا حركات خفيفة ، فما أن وصل موسى
حتى قرر أن يخرج في أعماله الحربية نهج عقبة بن نافع ،
فيسير في الأقاليم كلها ، ويقر أمر الإسلام فيها . وكان
موسى موقفا في عمله ، فلم تعترضه صعوبات تذكر ، وكان
كل همه ترك العلماء حيثما حل ليققهوا البربر في الإسلام .
وقد انتهى به المطاف إلى حيث انتهى بسلفه الكبير عقبة
ابن نافع ، فوقف عند المحيط الأطلسي — أو بحر الظلمات
كما كان يسميه العرب .

وذكرنا منذ قليل أن عقبة وصل إلى طنجة ، وصالح
حاكم إقليمها (اسم الإقليم سبته) السكونت يليان .
ولاقليم سبته أهمية كبيرة في فتح الأندلس ويحسن

بنا أن تقول عنه كلمة . .

هو يقع في المثلث الأفريقي المواجه لاسبانيا ، وكان منذ القدم تابعا لحكومة بيزنطة أسوة بجميع افريقية . إلا ان فتوح العرب ، وبعد الشقة بينه وبين بيزنطة حلت حاكم سبته على أن يدين بالطاعة العملية (١) لأقرب الدول الأوربية له . وهي اسبانيا . وبذا أصبح تابعا للملك القوطي لذي يحكم هذه المملكة الأوربية . . فلما وصل عقبة بن نافع الى منطقته صاحدا على جزيرة معلومة ، ولما انحسرت موجة الفتح نتيجة لشن البربر المتعاقبة انقطعت الصلة بين السكونت يليان وبين القروان . وهانحن هؤلاء نرى موسى بن نصير يقترب مرة أخرى من سبته فماذا هو صانع .

قبل أن يفكر السكونت يليان في مجابهة هذا الخطر الجديد . حدث تعديل في القيادة الإسلامية بهذه الجبهة .

(١) يشبه هذا الموقف حال مصر قبل الحرب العظمى . فقد كانت تابعة لاسبانيا ولا تملك أعمالا

قد اختار موسى بن نصير أحد قواده . ليتولى حصار
المنطقة . وعاد هو إلى القيروان . ولم يكن هذا القائد غير
طارق بن زياد . . الجندي البربري . الذي اعتنق الاسلام
وأعتقه العرب لشجاعته وبسالته .

اتصل الكونت يليان بطارق ، وكان النعام بينهما
سهلا فأولهما أوربي بحكم مولد والدماء (١) وثانيهما — طارق
— من البربر . . والبربر ليسوا إلا سلالة الوندال القدماء
قد كان أبيض الوجه . أشقر الشعر ، أزرق العينين . حتى
ان بعض المؤرخين المحدثين يعدونه جرمانى الاصل
أكثر منه أفريقيا . .

يذكر ابن عذاري المراكشي في كتابه : البيان المغرب
في أخبار المغرب : اختلاف في نسب طارق . فالأكثر
على أنه بربري . . وأنه مولى لموسى بن نصير من سبي
البربر وقال آخرون أنه فارسي النخ . . والواقع أن أمر

(١) قيل هو قوطي . وقيل هو اغريقي . وقيل هو بربري ! !

طارق لا يحتمل خلافا ، فهو بربرى ، وأن أضاف هذا
المصدر إلى اسمه عشرات أسماء الفرس . فمكثا تعود
المؤرخون القدماء أن يضيفوا مثل هذه الأسماء شغفا منهم
بالأنساب وبضرورة تحقيقها ، سواء جاءهم من العلم بنبتها
ما يحتمل الصدق ، أو جاءهم منه ما لا يحتمل الصدق ..
ومهما يكن الأمر فقد اتفق طارق مع الكونت يليان
على أن يظل حاكم أندلسه ، وأن يدين بالطاعة لحاكم
القيروان ويؤدى له الجزية . . . وبقى طارق فى هذه الجبهة
يضبط أمورها ويسوسها

يقول ابن عذارى : استعمل موسى بن نصير طارق
ابن زياد على طنجة وكان يليان مجاورا له بالجزيرة الخضراء
التي تلى طنجة ، فدخل طارق حتى صار معه إلى الرضا .
ووعده يليان بإدخاله الأندلس . . .

ونريد وقد أصبحنا قاب قوسين من فتح إسبانيا أن
نقول عن هذه البلاد كلمة قبل دخول العرب إليها ..

الاندلس

كانت اسبانيا احدى البلدان التي تكون الامبراطورية الرومانية القديمة ، وتدين بالطاعة لروما وقياسرتها . فلما ضعفت هذه الامبراطورية ، واغارت عليها قبائل الهون والوندال ، اصابت اسبانيا غارة من هذه الغارات . فقد اجتاحتها الوندال في القرن الخامس الميلادي واسموها واندلوسيا أى بلاد الوندال . وأخذ العرب من هذه التسمية القديمة كلمة الاندلس واطلقوها على شبه الجزيرة . وجاءت بعد هذا غارة القوط الغربيين (Visigoths) على اسبانيا ، فأجلوا عنها الوندال ، الذين هربوا إلى شمال افريقية ، واختلطوا بأهلها ، وعمروا سفوح الاطلس وكان قدوم القوط الى اسبانيا في أول القرن السادس الميلادي (عام ٥٠٧) . وقد حارلوا في أول أمرهم أن

يسيروا سيرة حسنة في هذه المملكة الجديدة التي استولوا عليها . ولكن ما لبثت حياة الاستقرار أن استغرقتهم . فهاجوا بالترف وانغمسوا في حياة النعيم الى قمم رؤوسهم . وقد حجبتهم القصور والجنور والتساء عن الشعب . وراح حياة الاموال يسومونه سوء العذاب . ويعتصرون حيويته اعتصاراً

اتفق القوط في حكم اسبانيا — أو ايبيريا كما كانوا يسمونها نحو قرنين من الزمان ، عانت فيها البلاد الولايات فقد اقسم اهلها الى طبقات :

طبقة الحكام والنبلاء ، وهي سلالة القوط الفاتحين التي استولت على أكثر الارض الزراعية . وكانت لها مناصب الجيش والرياسة في الخدمات المدنية .

وطبقة رجال الدين ، وهذه الطبقة بدورها كانت تملك قسماً كبيراً جداً من الارض معفى من الضرائب ، وكانت تشارك في حكم البلاد . ولم يكن الحكم الا بالبحث

في وسائل جباية الاموال وزيادة ثروة الحاكمين
وكان دافعوا الضرائب ، يكونون الطبقة الثالثة ، وهي
طبقة التجار والصناع وصغار الملاك . ويقع على عاتقها عبء
دفع الاموال ..

وتمت طبقة أخرى هي طبقة رقيق الارض . وهؤلاء
كانوا يفلحون أرض كبار الملاك ، ويدخلون في عداد ثروة
المالك كأحد متاعه . ولم تكن لهم حقوق ولا يكن كانت
عليهم واجبات العمل في الأرض . فاذا انتقلت ملكية
الأرض من سيد الى سيد . انقلوا الى يمين المالك
الجديد ...

وكانت تسكن اسبانيا طبقة أخرى ، لعبت دورا كبيرا
في حياة اسبانيا وهي طبقة اليهود . فقد تمكنوا كمعادتهم
في كل زمان ومكان من الاستحواذ على مرافق البلاد
الاقتصادية . وأحس الحاكم بوطأتهم ، فراح يناصرهم
العداء . وقد بدأ اضطهادهم الملك القوطي ريكارد

(٦٧٤ - ٦٠١ م) الذى صدر شعائر اليهود الدينية
ومنعهم من الزواج حسب شريعتهم ، ولم يبح لهم الختان
ولا انتقاء اللحوم (الشرعية) كما منعهم من الشهادة ضد
المسيحيين . وكانت عقوبة الخلف الرجم بالحجارة حتى الموت
أو احراقه حيا .. وقد اجتهد اليهود للبرء هذه الاخطار
في رشوة الحكام ، ولكن ما كاد يتولى ملك قال
هو الملك « ميوت » (٦١٢ - ٦٢٠ م) حتى تنال في
اضطهادهم بان أصدر لهم أمرا اجماعيا باعتناق الدين المسيحى
ومن يخالف هذا الامر يطرد من البلاد فوراً .. فهرب
كثيرون الى أفريقية وفرنسا وتنصر تسعون الفا . ولكن
كانت نصرانيتهم في الظاهر فقط انتقاء نكال الملك
وأحسن حكام اسبانيا بأن اليهود لا يزالون قوة بعد
كل هذا ، فعقد في سنة ٦٧٣ م مؤتمر دينى في طليطلة
تقرر فيه انتزاع أبناء اليهود السابقين من أهلهم ، وتربيتهم
في أديرة المسيحية ، وفي مؤتمر قال صدر قرار بان يقسم

كل ملك جديد يتولى عرش اسبانيا على التشديد في اضطهاد
اليهود

وقد اكتشفت بعد هذا مؤامرة يهودية قصد بها عمل
انقلاب في الحكم ، وتدير ثورة ضد المسيحية ، فكان
كشفها سببا في زيادة التنكيل بهم . فقد صدرت الاوامر
بمنع التزاوج بين اليهود بعضهم وبعض ، فاليهودى يتزوج
مسيحية ، واليهودية تتزوج مسيحيا ...

ومع هذا . . ظل اليهود هم اليهود يتربصون .
ويتحينون الفرصة . فما أن وصل العرب الى شواطئ أفريقية
الشمالية . حتى راحت رسالهم تخاطب قواد المسلمين وعهد
لهم سبيل غزو اسبانيا

محمد عليہ السلام
بقلم محمد صبيح
يصدر اول الشهر القادم

الكونت يلباره وابنته

أتجه بعض المؤرخين المحدثين الى تفسير أحداث التاريخ الكبرى على ضوء الحوادث الشخصية التي تضطرب بها حياة الناس الخاصة . وقد أصر فـ فريق من هؤلاء المؤرخين في الاخذ بهذه النظرية حتى أرجعوا اليها كل شيء . فلو لم يكن نابليون قصيرا لحدث كذا وكذا . ولو كان هتلر متزوجا لتغير تاريخ الالمان . وهكذا أخذوا ينتشون في خلجات نفوس كبار الناس وقادتهم . ويدرسون الصلات الخاصة التي تنشأ بينهم وبين الآخرين دراسة تفصيل واسهاب ويخرجون منها النتائج ويربطونها بأسبابها الظاهرة .

وهذا المذهب على قيمته وجدواه شديد الخطر اذا صرف المؤرخ عن البحث في الظروف العامة وفي نزعات

الجماعة الانسانية التي تكون تاريخ أمة من الأمم. ولكنه
في نفس الوقت لازم ، وفي أهمله تضييع لحق الفرد الممتاز
على نفسه ، فالتاريخ من صنع الافراد والافراد من صنع
أنفسهم كما هم من صنع بيئتهم.

والذي ساقنا الى هذه المقدمة ، قصة خاصة ،
أجمعت جميع مصادر التاريخ الاندلسي على ايرادها ،
وأرجعت اليها السبب المباشر في تمهيد الطريق أمام طارق
ابن زياد والفتح الاندلسي .

ومؤدى هذه القصة ، أنه كان من عادة الامراء من
الفرنجية في المصور الوسطى أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم الى
قصور الملوك لكي ينشأوا فيها نشأة ممتازة . ويتشبعوا
بتقاليد وثقافة هذا الجو المترف الذي نشرته الأسر الحاكمة
من حولها ، حتى اذا مضى الفتي أو الفتاة بضعة أعوام
عاد الى مقر أبيه مطبوعا بطابع الحياة التي خلفها في
مقر الملك .

وكان الكونت يليان تابعا للملك اسبانيا رoderic
(Roderic) الذي اختار حمايته كما قلنا على حماية امبراطور
بزنطة لبعد هذا وقرب ذلك من بلاده سبته . وكانت لهذا
الكونت فتاة صغيرة اسمها فلورندا (Florinda) . رأى أن
يسير بها سيرة الأمراء ، فأوفدها الى قصر رoderic في
طليطلة لتنشأ هناك . وكانت الفتاة على حفظ كبير من
الجمال ، فقال اليها رoderic ، واحتال عايبها حتى اغتصبها .
ولم يكن هذا الحادث الفاضح مألوفا في تقاليد القصور .
اذ كان على الملك ان يصون فنيات الامراء في قصره كما
يصون بناته هو .. وقد احتالت فلورندا حتى أبلغت اباهما
النبا المشين . وهنا ثارت ثائرة يليان . ولم يجد سبيلا
للانتقام الا أن يتحالف مع العرب سرا لكي يغزوا اسبانيا
ويزيلوا رoderic . الملك النذل ، عن عرشه

هذا هو مؤدى القصة ، مع تفصيل في بعض المراجع
وايجاز في البعض الآخر . وقد اوردها لين بول في تاريخه

وكثيرون غيره عن الاندلس وقال إنه يقص هذه القصة دون
أن يتثبت من صحتها . وقد احتلت قصة فلورندا او كالا كما
اسماها العرب قسما هاما من تاريخ النتح الانداسى لا يمكن
تجاهله . ولو ان قصتها حديث خرافة ، اذا لا يمكن أن
يوصم الكونت^١ ببيان بالخيانة المظنى ، لا نضمانه لى صفوف
العرب .



والملك رديك هذا الذى خرج الى تقاليد الشرف
والفروسية . . من هو وما شأنه ؟

فى سنة ٧٠١ م تولى ملك اسبانيا ملك من الامرة
المالكة القوطية وتزا Wiliza ويسميه العرب - غطشة
وحدث فى عهده خلاف كبير بينه وبين البابا . وذلك انه
أباح للقسس الزواج ، كما اباح لليهود المنفيين العودة الى
اسبانيا . وقد بلغت الخصومة بينه وبين البابا - حتى عين اخاه
مطريانا لطايطلة مع وجود مطران من قبل روما . وانتشرت

٩٧٠ - (١) طارق بن زياد

في عهد هذا الملك الفتن ، فاضم الثورات بشيء غير قليل من
العنف ومات في سنة ٧٠٩ م

وكان ردريك - اورذريق - كما اسماء العرب ، احد
القواد ، وكان طامعا في العرش . فما ان مات « غطشة » حتى
نهي ابناءه واستولى على الملك . يقول المقرئ في نفع الطيب :
« لم يكن لدريق من ابناء الملوك ، ولا بصحيح النسب
في القوط ، وانه نال الملك من طريق الغصب والتسور
عندما مات غيطشة الملك الذي كان قبله . وكان اثيرا لديه
مكيئا . فاستعصر اولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال
مالوا معه . فانتزع الملك من اولاد غيطشة واستبقاهم ،
فكانوا هم الذين دبروا عليه فيما ذكر عندما لقي رجال العرب
المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق ، وعليهم
طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، طاعة (طعما) منهم
في ان يؤدى ويخلص اليهم ملك أييهم »
وهكذا نستطيع ان نضيف الى نقمة يليان على ردريك

بسبب ابنته أسباباً أخرى ، وهي :

أولاً : — كثرة الاضطرابات والفتن في اسبانيا

نتيجة غضب البابا ، وعسف الملك

ثانياً : — اغتصاب ردرىك للعرش ، واتقسام

اسبانيا إلى حزبين حزب يؤيد أبناء « غيطشه (١) »

والحزب الآخر يناصر ردرىك

وكان حزب ردرىك يتألف من الرومان ، سكان

البلاد قبل دخول القوط ، وقد استظهر بهم على هؤلاء القوط ،

ومنع الزواج بين المنصرين ، وكان حوله أيضاً رجال

الكنيسة الكاثوليكية الذين غضبوا على الملك السابق .

ولم يمض وقت كثير حتى سار ردرىك سيرة أسلافه

في الانغماس في اللهو والمجون ، واعتصار أقوات الشعب

وارزاقه لنفطية فترات التصور ، وجنون الحفلات

والنآدب وهكذا لم ينفذ الشعب شيئاً من تقيده حاكمه

١ أبناء غطشة هم Ardaliasto ' Romulo ' Olemundo

نعود بعد أن شرحنا طرفاً من أخبار الملك الحاكم
في اسبانيا إلى قصة الكونت يليان وابنته فلورندا .
يقول السلاوى : احتالت الفتاة حتى أعلمت أباه
سراً ، فاحفظه ذلك ، وحمى أنفه وقال : ودين المسيح
لا يزين ملكه ، ولا تحفرن ماتحت قدميه . وكان امتعاضه
من فاحشة ابنته . هو السبب في فتح الاندلس ، مع سابق
القدر . ثم ان يليان عبر سبتة في فصل الشتاء واصعب
الاوراق ، فقدم طليطلة ، واجتمع بالملك (ردريك) . فانكر
بحيئه ذلك الوقت ، وسأله عن السبب فذكر خيراً ، واعتل
بأن زوجته قد اشتد شوقها إلى ابنتها ، وأنه أحب اسعافها
بطلبها . وسأل الملك تمكينه منها ، وتمجبل سراحه الى
عمله . فعمل ، وأحسن جائزة الجارية (فلورندا) وتوثق
منها بالسكتان ، وأفضل على أبيها ، وانقلب راجعاً .
وذكروا أنه لما ودعه ، قال له لتريق : إذا قدمت علينا
فاستفره لنا من الشذافات (نوع من طير الصيد) التي لم

تزل تطرفنا بها ، فاذها أثر جوارحنا لدينا - يعنى بذلك
طيورا فارحة كانت تتخذ للاصطياد . فقال له يليان : أيها
الآنك . وحق المسيح لئن بقيت لادخلن عليك شذافات
مادخل عليك مثاها قط - يعرض له بما أضمره من ادخال
العرب عليه .. »

- ٣ -

الى اللندلس

عاد يليان من اسبانيا ، وتوجه من فوره الى القيروان
حيث قابل موسى بن نصير ، وأخذ يحدثه عن الاندلس ،
وبزيدله قيمتها . يقول المقرئ في فتح الطيب
« تها يليان للمسير نحو موسى بن نصير الامير ،
فضى نحوه بافريقية ، وكلمه فى غزو الاندلس ، ووصف له
حسنها وفضلها وما جمعت من أشتمات المتاعم ، وأنواع
المرافق وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثرارة المياه ،

وعذوبتها . وهون عليه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم
بضعف البأس وقلة الغناء . فشوق موسى إلى ما هناك .
وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يليان . فعاقده على الانحراف إلى
المسلمين ورأى موسى أن يخبر إخلاص الكونت
حتى لا تكون دعوته هذه مكيدة يدبرها للمسلمين فطلب منه
أن يغير هو على أحد شواطئ الأندلس ، ويكون معه رقباء
من العرب ليتأكد من أنه يعادى الأسبان حقا . فلم يتردد
حاكم سبته ، وأعد سفينتين ، وسار بهما إلى أسبانيا
وأغار على إحدى مدن الشاطئ الأسباني ، وانهبها ، ثم
عاد . . . وأنبأ الرقباء موسى بن نصير بما حدث فاطمان
قلبه ، وقرر أن يعمل على غزو الأندلس .

ولا بد لتنفيذ عمل خطير كهذا من استئذان الخليفة في
دمشق ، فسير إليه البريد يصف له الأندلس ، ويذكر له
هذه الأحداث الأخيرة ، ويطلب منه الإذن بالفتح فكتب
إليه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك . « خضها بالنسرايا

قبل حتى ترى وتختبر شأنها . ولا تقرر بالمسلمين في بحر
شديد الالهوال . فرد عليه موسى : « انه ليس يبحر زخار
(كبير) ، وانما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه . فرد
الوليد . « ان كان ولا بد من اختبارهم بالسرايا قبل اقتحامه »
ونفذ موسى امر الخليفة ، فأعد بعثة من اربع مئة
جندى ومئة فارس على رأسهم قائد بربرى اسمه طريف
فقاتلهم اربع سفائن إلى احدى الجزر المواجهة للشاطئ
الاسباني . ومن هنا اغار طريف على الشاطئ . فأصاب
سبباً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً . ومالا جسيماً وأمتعة
وذلك في شهر رمضان سنة ٩١ هـ . ويوافق التاريخ شهر
يوليو ٧١٠ م

فأخذ موسى يفكر في طريقة الغز ، وخشى الكونت
يليان من البطء فسار إلى القيروان مرة اخرى ، وحث
موسى على التعجيل في الفتح حتى لا تضيق الفرصة .
ويظهر ان موسى بعد كل هذا لم يكن مطمئناً كل

الاطمئنان ، فقرر ان يشن غارة اخرى على شواطئ اسبانيا
اجراً من غارة طريف ، ليرى كيف يقابلها لاسبان . وكان
طبيعياً ان يختار قائد الحامية الغربية ، طارق بن زياد الامير
البربري ، وأن يكلفه مهمة الاغارة . .

وما يرجح لمدينا القول بأن موسى لم يكن يريد من طارق
إلا الاغارة فقط ، أى انه لم يرد منه الفتح الكامل . ان
عدة الجيش الذى سيره معه كان قليلاً ، ثم انه كتب له بعد
ان رآه زحف الى الامام وتوغل : «مادعاك الى الايئل والتقمح
في البلاد بغير امرى . وانما كنت بعثتك غازياً ثم تنصرف»
إلا أن على هذا الترجيح مأخذ فسرى بعد قليل
أن طارقا طلب من موسى مدداً فأرسل له المدد ، ولو أنه
لم يكن منه إلا الاغارة الخفيفة على الشاطئ لطلب من العودة
ولم يسمعنه بالمدد ، ثم انه يعلم أن لم يكن تحت تصرف طارق
غير سفن قليلة ، ولو اراد الجيش العودة لخطر مفاحى . لما
كفت هذه السفن ثل عشر الجيش دفعة واحدة . وأبلغ

من هذا أن طارقاً أُحرق (فيما يقال) هذه السفن حتى لا
يكون لاحد من جنده مطعم في العودة .

وعلى هذا فيمكن القول بأن موسى لم يكن يعارض
في الفتح ، فلما رأى نجاح طارق الباهر حقد عليه وحسده
لأنه لم يكن هو صاحب هذا المجد ، فعنفه على المضي دون
إذنه . . وفي نفس الوقت كان طارق راغبا كل الرغبة في
الاستيلاء على الأندلس ، وليس هناك ما يمنع من أن يكون
قد تجاوز الحدود التي رسمها له موسى ، ومضى إلى الأمام
تحت تأثير هذه الرغبة الملحة في الغلبة والفتح

- ٤ -

العرو اما مسكم . . والبحر وراءكم !!

يقول المقرئ :

« عقد موسى لطارق ، وبثه في سبعة آلاف من
المسلمين جلهم البربر والموالي وليس فيهم عرب إلا القليل

ووجه منه « يليان » . فمياً له يليان المراكب . فركب في
اربع سفن لاصناعة (اسطول) له غيرها . وخط بجبل
طارق المنسوب اليه يوم سبت في شعبان سنة اثنين وتسعين
في شهر اغسطس . ثم صرف المراكب الى من خلده من
اصحابه فركب من بقى من الناس . ولم تزل السفائن تختلف
اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل .. »

ولما تكامل هذا الجيش الصغير تحت أمرة طارق ،
وقف في سفح الجبل (Mont Calpo) وخطب جنده قائلاً :
أيها الناس :

أيها المفر ! البحر من وراءكم . والعسود أمامكم ،
وايس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا انكم في
هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللثام . وقد
استقبلكم عدوكم بمحيشه وأسلحته . وأقواته مرفورة وأنتم
لاوزر (مأجراً) لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه
من أيدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم

ولم تنجزوا لسكم أمراً ، ذهب ربحكم ، وتعرضت القلوب
برعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان
هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد أقيت به
اليكم مدينته الحصينة . وإن انتهز الفرصة فيه لممكن أن
سمحتم لأنفسكم بالموت . وأناى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة
ولا حملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . وأنا أبدأ
بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم
بالأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي . فما حظكم
فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة
من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر
والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور
الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك
أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورخصكم لملوك هذه
الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطمان ،
واسماحكم بمجادلة الأبطال والفرسان ليكون حظهم منكم

ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة .
وايكون منكم خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين
سواكم . والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا
في الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه .
واني عند ملاتي الجمين حامل بنفسى على طاعة القوم لتريق
قتاله ان شاء الله تعالى . . فاحملوا معي فان هلكتم بعده
فقد كفى بكم امرا ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم
اليه وان هلكتم قبل وصولي اليه فاحلفوني في عزي على
هذه ، واحملوا بانفسكم عليه ، واكتفوا لهم من فتح
هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون . . »

وكان لهذه الخطبة تأثيرها الكبير في نفوس هذه الحفنة
القليلة من الرجال ، التي ترى نفسها وقد احاطت بها الجبال
العالية حتى سدت الافق ، وهي في ارض لا تعلم عن امرها
شيئا ، وتواجهها قوات يعلم الله وحده عددها ومقدارها .
ثم انه لا مطعم لها في نهاية الامر الا النصر على هذا العدو

المجهول أو الموت في أرضه — أرض الغربية البعيدة —
أو الغرق في هذا البحر الذي حملهم منذ قليل الى جزيرة
الاندلس !

ونحن بعد ثلاثة عشر قرنا من انقضاء هذه الخطبة نقف
عندها فتأخذنا بلاغتها، وسلاستها، وعزيمة صاحبها الجبارة،
وارادته التي لا ترد .. ولـ كننا نلاحظ أن الرواة تزيدوا
في بعض نواحيها . فهو يذكر أن جيشه من الابطال العربان
ولم يكن مع طارق من العرب غير ثلاث مئة، وبقية الجيش من
البربر . ثم انه يتحدث عن اليونان أهل الجزيرة . وما كان
أهلها من اليونان ولكنهم من بقايا الوندال القدماء ثم الرومان
ثم القوط المتغلبين . وقد لا تكون هذه الاسجاع مما لا يفهم
عن بربرى أفريقى دخل في الاسلام وحظه من العلم بلغسة
العرب لا يصل الى مرتبة الترصيع والتسجيع . ولو أن
الخطبة خلت منها أذن لزانتها البساطة بدل التكلف، وكانت
أقرب الى فطرة تلك الايام سواء كان قائلها من العرب

الاقحاح ، أو الاجانب المنعربين . وقد أورد المقرئ كما
أورد ابن خلدون الخطبة بالنص الذي ذكرنا دون تحريف
...

كانت أول المقاطعات التي نزلها طارق تحت حكم قائد
أسماء العرب تدمير ، واسمه الحقيقي ثيودمير Theodmir
وقد رأى الاقبل له بقتال هذا الجيش المغير ، فأخذ يفسح
أمامه ويطاوله ، كما كتب لتريق كتابا يخبره فيه بالنبا
الخطير . قال له . « أنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندرى أمن
الهاء هم أم من الارض » وطلب منه المدد . وأن يحضر
بنفسه على عجل . فقد سبقت العرب خلال حروبهم في
السنين السبعين التي وطئت أقدامهم فيها انشمال الافريقى
دعايات واسعة عن بسالتهم وجراتهم والاقاصيص التي
تروى عن بطولتهم

أين كان ردريك في هذا الوقت 17

...

كان ردرىك فى هذا الوقت يحارب فى أقصى الشمال
من اسبانيا ، ليخضع قبائل البشكنس Basques الثائرة فى
جبال البرانس . ويقال ان يليان هو الذى أوعز له بالمسير
الى الشمال فى هذا الوقت حتى يخلو الجو فى الجنوب
لحلفائه العرب ، وحتى تؤخذ البلاد على غرة فى غيبة ملكها
بأحد الأطراف النائية .

وما أن تلقى ردرىك (ملك اسبانيا) نبأ غزوة العرب
حتى هروا على عجل الى قرطبة . وأخذ يجمع فى طريقه
الجند وعدة الحرب . ولكن الملك الذى سبقه ، كان
قد صادر سلاح الاهالى ، كما أن اتقسام الشعب وسوء
حاله ، وضعف معنوية الكنيسة وانغماسها مع الحكام
فى الشهوات ، وموقف اليهود العدائى ودسائسهم التى
لا تنقضى .. كل ذلك كان من العوامل التى قللت من عدد
المجندين ، ومن سار مع ردرىك سار مكرها . وهذا بطبيعة
الحال غير خاصة بجنده الذين يشايعون سياسيا ، فهؤلاء
كانوا يشدون أزره بقوة .

يقول تقيح الطيب : « لما اقتحم طارق الاندلس تهر

إليه لذريق ، واستنفر اليه أجناد أهل الاندلس ،
وكتب إلي أولاد غيطشه (الذين اغتصب منهم العرش)
وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتخذوا الرجال ، يدعوهم
إلى الاجتماع معه علي حرب العرب ، ويحذرهم من
العودة عنه ، ويحضهم علي أن يكونوا علي عدوهم بدا
واحدة . فلم يجحدوا بدا . وحشدوا ، وقدموا عليه
بقرطبة ، فنزلوا اكناف قرية شقندة ، بعدوة نهرها قبالة
القصر ، ولم يطمئنوا إلي الدخول علي لذريق أخذا
بالحزم ، الي أن استتب جهاز لذريق ، وخرج ، فانضموا
إليه ، ومضوا معه ، وهم مرصدون لمكروهه ... »

وكان طارق قد استمر في زحفه من الجنوب حتي
وصل الي بحيرة أمام مدينة شدونه اسمها لاينده
(La Jande) . وهناك جاءتة الانباء بمسير رديك اليه
فكتب الي موسى بن نصير يطلب منه المدد علي عجل
ويقول له انه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس
وملك المجاز اليها ، واستولى علي اعمالها الي البحيرة .
وان لذريق زحف اليه بما لاقبل له به إلا أن يشاء الله .
وكان موسى منذ وجه طارقا لوجهه ، قد أخذ في عمل
السفن حتي صار عنده منها عدة كثيرة ، فحمل الي طارق

ففيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً كملت بهم عدة من معه
اثني عشر ألفاً اقوياء على المغانم حراصاً على اللقاء ، ومعهم
بليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله يد لهم على
العورات ، ويتجسس الاخبار .. (١)

والخلاف بين المؤرخين كثير حول عدد جيش
ردريك . فأقل تقدير هو ما ذكره ابن خلدون من أنه
كان أربعين ألفاً . وأما المقرئ فيصعده إلى مئة ألف ،
ويتوسط بقية المؤرخين بين هذا وذاك . فيقول ابن بول
مثلاً ان جيش القوط كان ستة أضعاف جيش المسلمين
أي كان اثنين وسبعين ألفاً ...

تراجعت القوات و كان لقاءها عند نهر صغير يسمى
وادي لكه كما يدعو العرب ، او وادي بككة
(Wadi Bekka) كما ورد في المراجع الاجنبية . وقد حقق
دوزي هذا المكان الذي دارت فيه معركة من اخطر
معارك التاريخ كله . فقال إن هذا النهر الصغير يحمل الآن اسم
نهر سالادو (Salado) ويصب في البحر غير بعيد من رأس
الطرف الاغر (Trafalgar) . وقد حقق الادريسي قديماً
هذا المكان وشاهد بنفسه مكان المعركة ...

١ نفع الطيب ص ١٢٠

وفي ١٩ يوليو سنة ٧١١ هـ (رمضان سنة ٩٢) بدأت
 المعركة الفاصلة التي استمرت ثمانية أيام ... وكانت
 لا تتجاوز في اليوم الأول المناوشات التي تحدث بين الجيوش
 لاختبار القوى وتهيئة الصفوف ... يروى المقرئ أن
 رديك أرسل أحد أعوانه «أشرف على عسكر طارق
 فيحزر عددهم ، ويعاين هيئاتهم ومراكبهم . فقبل حتى
 طلع على العسكر ثم شد في وجوه من استشرقه من المسلمين
 فوثبوا إليه فولي منصورا فارا كضا ، وفاتهم بسبق فرسه»
 ولما رجع إلى الملك قال له أنه شهد معسكر المسلمين وقد
 «جاءك منهم من لا يريد إلا الموت ، أو إصابة ما تحت
 قدميك . فقد حرقوا مراكبهم إيانا لا تقسمهم من التعلق
 بها . وصنعوا في السهل موطنين اتقسمهم على الثبات إذ
 ليس لهم في أرضنا مكان مهرب . فرعب وتضا عف جزعه»
 استمرت المعركة في أرجح الأقوال ثمانية أيام ،
 وكل قائد يبذل جهده لتقوية رجاله ، وتثبيت أقدامهم
 واستثارة معنوياتهم (١) ولكن كان جانب المسلمين أقوى ..
 فهم المهاجرون مع قلة عددهم ، وتوفر كل ظروف

١ — تروى خطبة طارق المشهورة : البحر وراءكم في هذا
 المقام : وقد أثبتنا نصها قبل .

الاستبسال لهم . وكان القتال عنيفا جدا ، يصفه كتاب
البيان المغرب بقوله . « فاقتلوا قتالا شديدا حتي ظنوا انه
الفناء » ويقول المقرئ « واقتلوا قتالا شديدا الي ان
انهزمت ميمنة لذريق وميسرته . انهزم بهما ابنا غيطشه
وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه الملك » وقد ثبت القلب
ولكنه أيضا انهزم ، وأعمل المسلمون حرا بهم في ظهور
القوط « وخفي أثر لذريق فلا يدرى امره ، الا ان
المسلمين وجدوا فرسه الاشهب الذي فقد وهو راكبه
وعليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد . وقد
ساخ الفرس في طين وحماة وغرق العليج (الملك) فثبت
أحد خفيه في الطين فأخذ ، وخفي الآخر . وغاب
شخص العليج ولم يوجد حيا ولا ميتا »

وبظهر أن القتال بهذا العنف لم يدم الا يومين او
ثلاثة أيام في أول فترة المعركة ، وأتفق المسلمون الباقي في
مطاردة القوط . او انه استمر بمنته في آخر الايام
الثمانية وكانت الضربة ساحقة ماحقة فلم يجتمع للقوط
جمع حافل بعدها وخصوصا بعد موت ملكهم وانضمام أبناء
الملك السابق للمسلمين .

ويحمل « دوزي » في كتابه حملة عنيفة على أولياء

العهد المخلوعين ، ويصف انضمامهم للعرب بأنه
حق أو خيانة . فقد كان في حسابهم ان البربر
لا يطلبون من بلادهم إلا المغنم ، وانهم سيغادرون
الارض لهم بعد قتل خصمهم العنيد ، وسارق تاجهم -
ردريك لكي يخلو لهم الجو ، ويجلس أحدهم على عرش
آبائه . ولكنه حساب خاطيء ، فقد أضاعوا بعملهم
هذا العرش ، كما أضاعوا اسبانيا نفسها .

واذن فقد ذهب آخر ملوك القوط ، ولم يثر له على
أثر . واذن فقد ضاع تاج اسبانيا من يدهم ، وتلقاه
المسلمون . فظل زينتهم ثمانية قرون كاملة .

لقد حزنّت اسبانيا المسيحية على ملكها وعلى
استقلالها حزنا شديدا . وراح الشعراء ينشدون الاغاني
الباكية يرثون بها آخر الملوك - دون رودريجو - كما
أسموه . وتقول أحد هذه الاغاني على لسان الملك بعد
أن تمت هزيمته

» كنت الليلة الماضية ملكا لاسبانيا . وأمسيّت الليلة
ولا ملك لي

» كنت الليلة الماضية أملك القصور . واني الليلة
مشرّد لا أعرف أين اضطجع

« وكان يخدمني ليلة أمس مئة من الولدان وهم
ركع يسجدون

« واما الان !! أنادى فأسمع رجع الصدى وما من
أحد يلي النداء

« يا الضيعة الامل وسوءها من ساعة . وبالمعنة هذا
اليوم ..

« . . اليوم الذى ولدت فيه لأكون ملكا لهذا البلد
العظيم

« يا لبؤسي وشقائي . فعما قريب سأشهد الشمس
تقرب ويهبط ليل ثقيل

« أيها الموت . من علمك التانى والتمهل . ما الذى
تخشاه . هيا اضرب ضربتك القاضية»

وهل كان ينتظر من أمة الشدو والغناء إلا أن
تسكب أحزانها في اغانيها ، وتهيل على رديك الملك
الذى أبغضته حيناً من الدهر أثواب البطولة ، وتتخذ
منه رمزا لآمالها وأمانها .

لقد استعاروا من عقيدتهم المسيحية خيالا ، واعتقدوا
ان رديك ذهب . . ذهب حيا الى مكان بعيد في المحيط
ليبراً من جراحه ، ثم يعود ويخلص أمة المسيح

الاسبانية ، من غزاتها العتاة . وكثرت من حوله الاساطير التي تصور نظرة الطوائف المختلفة .. فمنهم من اعتقد ان رديك آوى الى ركن قصي من الارض ، يقضى أيامه في ندم . ويقطع نفسه حشرات علي ما جنت يداه في الايام السائلة . وقد أقبلت عليه الثعابين الغلاظ من جميع أقطار هذا الركن الذي يأويه ، ثم أخذت تبتلع به وهو ينظر اليها هادئاً وقد ثقلته خطاياها . فلما غسل ذنوبه في جوف هذه الثعابين ، خرج منها مطهراً ، بعد أن عانى الألم والاسى الذي طهر روحه من آثامها . وانه اليوم يقيم في جزيرة السلام ، وينتظره الاسبانيون لكي يعود فيحمل راياتهم وينتصر علي الاعداء . . . ولعل بعضهم ينتظر رجوعه حتى اليوم (١)

(١) توجد عقيدة الرجعة في كثير من خرافات الشعوب . ومن الشيعة الملاحين من يعتقد ان الامام محمد بن الحنفية ، قد آوى الى جبل رضوى بقرب ينبع ، وانه يأكل هناك العسل المصفي . وهم ينتظرون خروجه بالقرب من لجبل ليملاً الارض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . . (راجع تلب جزيرة العرب لفؤاد بك حمزة ص ٩٥)

ترك رديك ياوي الي مايشاء من الجزر ، وكل
ماتحققنا من أمره بعيدا عن هذه الاساطير انه سقط في
النهر ، واندفعت بجثته مع التيار في البحر ، فتلقيه الموج
وكان من المغرقين .

تركه لنبحث عن طارق الظافر الذي دعاه الاسبان
من هذه المعركة — الاحول — فاذا هو مع جنده
يتعقب افلال الجيش القوطي حتي يبدد شمله . وما كانت
هذه الاخلاق التي جمعها رديك بقادة على التجمع ، وفي
وسطها اليهود يفرقون وحدها ، وفي عظامها خلق
الريق يهد من اصلاها ..

لقد بسط طارق — بهذا النصر — قدميه على اسبانيا
كلها فلم تحدث بعد معركة وادي نهر لكة حرب تذكر
وقد نقل نفح الطيب عن الرازي : « اتصلت الحرب
بينهم ثمانية أيام ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق
عظيم اقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك
الارض .. وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلب قدره .
فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بنحو انهم الذهب
يجدونها في اصابعهم . ويعرفون من دونهم بنحو انهم
الفضة ، ويميزون عبيدهم بنحو انهم النحاس . فجمع طارق

القيء وخمسه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من
المسلمين سوى العبيد والاتباع ، وتسامع الناس من أهل
العدوة (الشمال الافريقي) بالفتح على طارق بالاندلس
وسعة المغانم فيها . فأقبلوا نحوه من كل وجه . وخرقوا
البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر (الواح
الخشب) ، فلاحقوا بطارق ، وارتفع أهل الاندلس
عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ،
ولحقوا بالجبال . . . ،

○

عمامة منقبت . . . وجسر عبر اسود !!

ومائرة سليمان

بعد هذا النصر المؤزر الذي أحرزه طارق ، وبعد
مصرع رديك انحدر طارق كالسيل الدافق إلى اشبيلية
ومر في طريقه ببعض القرى والمدائن الصغيرة فدانت
له . وما أن وصل طارق إلى اشبيلية حتى وجد أهلها ،
وقد خارت قواهم مقدما ، فسلموا له من غير حرب ،
وصالحوه على جزية يؤدونها له .

واستمر في زحفه ، إلى بلدة تسمى « استجه » فقد
جمع أن قلوب جيش رديك تجمعت عندها ، وأنهم
بدأوا يلهون شعبيهم استعدادا لمناجزة طارق . ولكنه
فاجأهم حيث هم ، فصمدوا له طويلا ، وأصيب المسلمون
بنحسائر غير قليلة ، ولكن طارقا ظهر عليهم بعد عناء شديد
ومحق قوتهم محقا . وكان تجمع هذه القوة ثم تبسدها
آخر محاولة جادة من جيش الملكة القوطية المنهارة للدفاع
عن اسبانيا .

وكان حسن الحظ يلزم طارقا في الحملة ، فقد كان
شديد الرغبة في الظفر بقائد قوة القوط الذي قاد معركة
استجه . ولكنه لم يظفر . وفي ليلة كان طارق يسير
منفردا صوب أحد الامهار ، فلقى قوطيا يستحم في الماء
فوثب عليه بمفرده ، وأخذه أسيرا إلى معسكره ، ولما
كشف عن شخصه ظهر له أنه القائد الذي يجد في البحث
عنه . وقد تصرف معه طارق تصرفا نبيلًا . فلم يقتله ،
وإنما أمنه على حياته ، وأعادته إلى حكم مدينته مقابل
جزية يؤدنها بعد أن استوثق من ولائه . فكان إحسانه
إلى هذا الرجل دعاية طيبة لطارق في المدائن الأخرى .
وقد رافق هذه الدعاية دعاية أخرى أشد تأثيرا .

وذلك أنه ذاع من معسكر طارق أن جند الجيش المغير
يفضلون لحوم الاسرى والقتلى في طعامهم على ما سواها من
لحوم !! وقد اثارت هذه الاشاعة الفزع الاكبر
في كل مكان ، وارتجفت لها الاندلس من اقصاها إلى
اقصاها ..

وهكذا كانت إشاعة احسانه لمن يهادنه من أهل
المدائن والقري ، « وأأكله » لمن يعانده ويعصاه سببا في
استسلام كثير من البلاد له

ورأى « بليان » مشير طارق ، أن يعدل القائد الفاتح
عن خطة زحفه بمجيئه كله ، وان يفرق هذا الجيش إلى
وحدات تسرع إلى كل وجه من وجوه الاندلس وتطأ
كل أرض البلاد في وقت متقارب ، حتي لا يجتمع
لها شمل . وراقت الفكرة لطارق . فنفذها فورا

قسم الجيش إلى أربعة أقسام ... فبعث أحد ضباطه ،
واسمه مغيث ، إلى قرطبة ، وأمدّه بسبع مئة جندي ركبوا
جميعا خيالا من التي غنموها ، فأصبحوا جيشا من الفرسان
لأرجل بينهم ، وانطلقوا في طريق قرطبة

ووجه جيشا آخر إلى غرناطة وجيشا ثالثا إلى

مألقه ، وسار هو في بقية الجيش الى طليطلة مدينة القوط .

أما فرسان الجيش الاول ، الذي توجه الى قرطبة ، فقد ذكر عنه تفح الطيب .

« كانوا بعدوة نهر شقندة ، في غيضة أرز شائخة ، وأرسلت الادلاء ، فأمسكوا راعي غنم . فسئل عن قرطبة . فقال : رحل عنها عطاء أهلها الى طليطلة ، وبقي فيها أميرها في أربع مئة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها . وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها ، إلا أن فيه ثغرة ، ووصفها لهم . فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ، ووطأ الله لهم أسباب الفتح بان أرسل السماء برذاذ أخفي دقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويدا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حراس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقا بالذي نالهم من المطر والبرد . فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل . وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا ، ورجعوا الى الراعي في دلائلهم على الثغرة التي ذكرها فأراهم إياها فاذا بها غير متسهلة التسم (سهلة التسلق) إلا انه كانت

في أسفلها شجرة تين ، مكنت أفنانها من التعلق بها ،
فصعد رجل من أشداء المسامين في أعلاها ، ونزع مغيث
« القائد » عمامته ، فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس
بعضها حتي كثروا على السور . وركب مغيث ، ووقف
من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على
على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا قترا منهم ، وكسروا أقفال
الباب وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة
عنوة . . . »

إلا أن حاكم المدينة تراجع على عجل من القصر الى
كنيسة في غرب قرطبة ، وتحصن بها . وكان بالكنيسة
ميرة . وكان الماء يأتيها من قناة خفية تحت سورها .
فحاصر مغيث البقعة كلها . وظل في حصاره ثلاثة أشهر
وهو يعجب من صمود المحاصرين كل هذه المدة .

وخطر له أن يستعين بعبد اسود كان معه في
(الخنط ف) أحد من بهذه الكنيسة عسى أن يده على
منفذ اليها . وكان هذا العبد نهما . فصعد الى شجرة تين يأكل
منها قبل أن يقوم بعمله . وبصر به حراس الكنيسة .
فاختطفوه وأسروه قبل أن يأسرهم . وما أن رأوه حتي
فرعوا أعظم الفرع فلم يسبق لاحد منهم أن رأى انسا

اسود اللون . وحسبوا ان الرجل صبغ نفسه بالسواد
لامر يراد . فجردوه من ثيابه . وذهبوا به الى مجري الماء
الذى يستسقون منه . ليغسلوا جسده ويكشفوا عما تحت
هذا اللون ولكن الغسل لم يفد ، وظل الاسير اسود
كما هو ..

فاقبلوا عليه بقطع الجبال وغيرها يحاولون الكشف
عما تحت هذا اللون . فأدوا بجسد الاسير دون طائل ..
وقد بقي في أيديهم سبعة أيام . عرف فيها طريق الماء
وقوة الحصن . ثم تمكن من الفرار في نهاية اليوم السابع
وأخبر مغيثا بما حدث فأسرع المسلمون الى الماء فقطعوه
عن أهل الكنيسة فأيقن المحاصرون بالهلاك . وخبرهم
مغيث بين الاسلام أو الجزية . ولكنهم رفضوا الامرين
جميعا . فلم يجد مناصا من اشعال النار فيها واحراقها .
وقد هلكوا جميعا الا قائدهم الذي فر .. وقد لمح مغيث
فطارده مطاردة عنيفة حتى أدركه بعد لاي وأخذه
أسيرا . وكان حاكم قرطبة هو الامير الوحيد الذي وقع
في الاسر ولم يصالح المسلمين . وقد استبقاه مغيث حتى
يقدمه لامير المؤمنين الوليد عند ذهابه الى دمشق . وقد
اسميت هذه الكنيسة (وهى كنيسة القديس جورج)

التي صبر أهلها كل هذا الصبر بكنيسة الحرقى ولها
مكان مقدس في نفوس نصارى الاندلس لحسن بلاء
من آوى اليها وتفضيلهم الموت على التسليم .
هذا ما كان من جيش مغيث ، وفتح قرطبة
وأما جيش مالقة فقد وفق ايضا

وقد حاصر جيش غرناطة المدينة ، وافتتحها عنوة
وبقيت فيها حامية من المسلمين ، مع نفر من اليهود يعملون
تحت امرتهم لصيانة الامن فيها . يقول المقرئ : « صار
ذلك سنة في كل باد يفتح المسلمون أن يضموا يهوده إلى
النصبة مع نفر من المسلمين لحفظها ، ويمنح معظم الناس
لغيرها . وإذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين
المخلفين ما فتح . . »

وأما جيش طارق الذي توجه إلى طليhle العاصمة
فقد بلغها ، بعد أن حاز القرى في طريقها . وقد فوجئ
عند وصوله إليها بأن وجدها خالية من أهلها . ووجد حاميتها
التجأت إلى مدينة حصينة بجبل قريب تسمى مدينة
المائدة ، لما قيل من أن فيها مائدة سليمان بن داود
وقد تمكن طارق من اقتحام هذا المعتم الجبل ، وازال
حاميته ، وظفر بكنوز طليطلة كلها وكانت نقلت اليها

كما ظفر بهذه المائدة . ويظهر أن كانت هناك مائدة
فعلا . وهي إحدى تقائس الفن القوطي . فليس
بمعقول أن تكون مائدة سليمان . وإن كان بعض المؤرخين
قد عني نفسه في البحث عن نسبتها له وذكر الطريقة التي
انتقلت بها إلى اسبانيا . وقد لعبت هذه المائدة دورا
كبيرا فيما بعد . وذكر عن صفتها أنه كانت لها ثلاث
مئة وخمسة وستين رجلا (بعدد أيام السنة) وأنها كانت
خضراء من زبرجد .

والاقوال تختلف فيما صنع طارق بعد أن ملك طليطلة
فقد قيل أنه استمر في زحفه إلى أرض جليقية حتى
انتهى إلى مدينة استرقة . وقيل أن الوقت لم يتسع له
وكل ما انتهى إليه هو العاصمة

* * *

وكان مقام طارق بالاندلس ، وفوزه بكل هذه
الفتوح في عام واحد . ويحسن بنا أن نذكر أن طارقا
وهو بربري من سلالة الوندال - ويقود جيشا من
جنسه ، كان برى في الاندلس وطنه الأول الذي طرد
منه اجداده القدماء بعد غارة القوط عليها ، واقصاهم
سكانها الأول إلى الشمال الأفريقي . فهو في فتحه ليس

بدار غربة ، وانما هو في وطنه الاصلى . واذا كان قد
 حارب القوط في جلد وشدة فهو يحارب قوما أغاروا على
 بلاد آبائه ، واغتصبوها بغير حق . . ولو ان طارقا كان
 في ظرف غير هذا الظرف ، إذن لمحق القوط محقا ،
 ولا زالهم من الارض كلها . ولكن طارق اليوم غير
 هؤلاء الآباء الذين أنحدر منهم . هو طارق المسلم الذي
 آمن برسالة محمد ، والذي يقبل على هذه البلاد لينشر فيها
 دينه الجديد ، دين السماحة والتوحيد . فلا حقد ولا موجدة
 وعني الله عما سلف في القرون الخالية . . ولعل آخر
 ما مثل نزعات هؤلاء الفاتحين للاندلس هذه الايات من
 الشعر التي أنشدتها أحد جند طارق وهم يجوزون المضيق الي
 اسبانيا قال :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا (١)
 عسى أن يكون الله منا قد اشترى ..
 نفوسا وأموالا وأهلا بجنة
 اذا ما شتهينا الشيء فيها تبسرا
 ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا
 اذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

(١) سفن مدهونة بالقار

بين موسى وطارق

ذكرنا أن طارقا طلب من موسى بن نصير مددا ،
وهو في أول زحفه على الأندلس فوافاه به على عجل ،
ثم أقام بالقيروان حيث كان ينتظر الأنبا .. فلما انتهت
عليه الأنبا تصف فتوح طارق ، وتوفيقه الذي لا بدانيه
توفيق ، أكلت قلبه الغيرة ، فكتب إلى طارق يأمره
بالوقوف حيث يلقاه كتابه هذا ، ويحذره من مخالفة
أمره . فجمع طارق أركان حربه ، وباحثهم في أوامر
موسى ، وقال لهم ان من خطل الرأي وسوء التدبير
التوقف عن الفتح ، اذ يخشى أن يجمع الأسباب جموعهم
من جديد ، ويكروا على الجيش الفاتح ، وهو قليل عدده
فتكون كارثة ما بعدها كارثة .. وقد أقره ضباط جيشه
على هذا الرأي ، واتفقوا جميعا على الاستمرار في الفتح .
وكتب طارق إلى موسى يعلمه بأنه لم يستطع إيقاف
الزحف ، وأبدى له الأسباب ..

وهنا لم ير موسى بداً من المسير إلى الأندلس .

فعجل بجمع جيش بلغت عنده عشرة آلاف مقاتل ،
وجاز به المضيق ، وكان نزوله في اسبانيا في ابريل سنة
٧١٢ أي بعد مسير طارق بعام . وطلب موسى من
إدلائه أن يدلوه على طريق يسير فيه غير الطريق الذي
زحف منه طارق .. وكان له ما أراد . فبدأ زحفه من
شدونه حتى انتهى إلى اشبيلية . وقد ذكرنا قبل عن
المقري أن أهلها صالحوا طارقاً واستأمنوه . ويظهر أنها
انتهزت فرصة ذهابه عنها وتقضت العهد ، وحصنت
نفسها ، وزادت في حاميتها ، فحاصرها موسى شهراً
طويلاً وهي ممتنعة عليه ، حتى إذا أجهد الحصار الطويل
المدينة اضطرت إلى التسلم فدخلها أمير إفريقية ، فإذا
هو في مدينة من أعظم المدائن ، خلف فيها الرومان
— إذ كانت عاصمتهم قبل دخول القوط اسبانيا — أعجب
الآثار ، وانخم آيات العماراة . حتى أن مؤلفي العرب القدماء
يسهبون في وصفها ، ويذكرون أنها على الرغم من نقل
الملك منها إلى طليطلة ظلت عاصمة اسبانيا الدينية ومقر
كنيستها العظمى .

وعمد موسى إلى ما كان يعمد إليه طارق ، فأبقى في
المدينة حامية إسلامية ، يأتمر بأمرها اليهود الذين كانوا

يعاونون الفاتحين كل المعاونة انتقاما من اسبانيا المسيحية
وما صنعت بهم في أيام ملكها الذاهب .

وانحدر موسى بن نصير من اشبيلية الى غرب
الاندلس ثم إلى البرتغال . وبلغه في مسيره أن أهل
اشبيلية انتقضوا مرة أخرى وثاروا على حاميته فقتلوا
منها ثمانين رجلا . فأمر ابنه عبدالعزیز بن موسى بالعودة
اليهم وتأديبهم ، فصدع عبدالعزیز بأمر أبيه ، وأعاد
سلطان الاسلام إلى هذه المدينة القديمة ، ولم تحرك فيها
ثورة بعد هذا

وكان اعنف ما لقي موسى من مقاومة عند حصاره
لمدينة « ماردة » . وهي إحدى مدن اسبانيا القديمة ،
ومن بقايا العهد الروماني ، بناها أغسطس ، وشيد فيها
الكثير من المعابد والملاعب والجسور حتى كانت تلقب
« بروما الاسبان » ولناعة حصون هذه المدينة ، وشدة
اهلها في المقاومة أضطر موسى إلى أن يلجأ لحيلة حربية
فأظهر أنه منهزم عن المدينة ، وصدق حامتها هذه الهزيمة
المصطنعة فغادروا معاقلم ، لمطاردة المسلمين ، فإذا بكين
موسى يفاجئهم بهجوم عنيف لا يبق عليهم ، ولا يذر
ثم التقى موسى بطارق

أما طارق ، فقد كان حفيا بأمره ، خرج الى ظاهر
طليطلة يتلقاه بالبشر والترحاب .. وأما موسى فكان
مريدا الوجه ، يادي الغيظ ، تنتفض اطرافه من الغضب ..
فما أن رأى قائده حتى علا رأسه بالسوط ، وأهانته
بالقبول وبالصرب أبلغ اهانة ، لانه خالف أمره ،
وأمعن في الفتح دون رأيه .. ثم أمر به ان تحلق رأسه
كما يصنع بالخاطئين المذنبين ، ثم زج به في السجن .
وطالبه بقائمة من الذهب والجوهر ، وبمائة «سليمان»
ويظهر أن طارق بن زياد كان يتوقع هذا المصير ، فزرع من
المائة رجلا من أرجلها أخفاها ثم قدم لموسى المائة
وجميع ماله . فلما سئل عن الرجل المفقوده ، قال انه لا يعلم
من أمرها شيئا ..

ولعلنا اذا فتشنا في خبايا التاريخ واطوائه لانكاد
نظفر بحادث كهذا الحادث . فعلى كثرة ما صنع الحقد
والحسد بالناس ، وعلى كثرة ما استبدت الزوات
والشهوات بالافراد والجماعات ، وعلى كثرة ما نعرف من
مظاهر الكنود والعقوق ، لم نعرف حادثا كهذا الحادث
في غرابته وفي عمق دلالاته .. قائد ظفر بكل هذه الامجاد
العراض ، يخرج الى ظاهر المدينة للقاء سيده ، ومن

ورائه قواده ورجال جيشه ، وأسراه وأعوانه من
فرنجة وبربر وعرب ، وما يكاد يلمح أميره حتى يهبط
من على جواده ، ويسعي راجلا ، فيكون الرد على
ترحيبه السوط يعلو رأسه وسائر بدنه ، والصخب
والشتائم تتناوشه من كل وجه ..

ان حكم الخلق ، وحكم التاريخ ليشتد ويقسو على
موسى بن نصير ، ولا يشفع له إلا سابق بلائه في افرقية
والاهذه الرحلة المسلحة التي تعقب بها طارق بن زياد . ولم
تكن الرحلة كلها شرا ، وانما ساعدت على تثبيت دعائم
الفتح ، وتحطيم مقاومة القوط .. ثم ان موسى نفسه لقي هذا
المصير الذي لقيه طارق .. بل لقيه بصورة اعنف
واقسى ، وليكنه لم يكن في دار عزه ، وفي ذروة مجده ..
بل كان في بلاط الخليفة بدمشق ، فردا كسائر الافراد .
وامكن طارق ان يبلغ شكواه الى امير المؤمنين
الوليدي في دمشق ، فسير الوليد اوامره بالبريد الى موسى
ان ينجلي سبيل طارق وان يحسن اليه . وكان موسى قد
شفي حقه من القائد الباسل ، ووصل من اذلاله
الى ما يريد .. ثم انه لم تكن به طاقة على معارضة
امير المؤمنين .

وفي كتاب تاريخ العرب في الأندلس لذياب بك
« جمع موسى رؤساء الجيشين ليحاكم طارقا فسأله
امامهم عن مخالفة أمره ، فاعتذر طارق بأن الحالة قضت
عليه بذلك وان رؤساء جيشه اجمعوا رأيهم علي متابعة
السير . (ولولا ذلك لما كان فتح العاصمة ، وامهات
المدن في زمن قريب) . ما قنع موسى هذا الاعتذار ،
بل عزل طارقا من قيادة جيشه وحبسه وعهد بالقيادة
الى مغيث الرومي ، ولكن هذا الشهم ابت نفسه الكريمة
ان يخلف قائده ودافع عنه بجرأة امام الوالي . ولما اصر
علي ما حكم به ، بلغ مغيث المشككة الي الخليفة ليحصل
فيها . فورد منه الامر باعادة طارق الى قيادة الجيش »
استرد طارق حريته ، وطارده نشاطه ، فكان هو
القائد الفعلي للجيش مرة أخرى ، وروحها الوثابة ،
وراسم خطط الفتح من جديد . سار طارق بالجيش ،
وتبعه موسى . فكان طارق يفتح ، ويترك لموسى
التمكين للفتح وعقد المعاهدات وترتيب الاعمال
الادارية في الامصار المفتوحة . واستوليا على أقاليم
اراغونه وقشتالة وقطالونية - حتى وصلا الى جبال
البرانس ، وهي الحد الفاصل بين اسبانيا وفرنسا .

وبوصلهم إلى هذه الجبال تكون الاندلس كلها قد
دانت لهم إلا ركن في أقصى الشمال الغربي من اسبانيا
تسكتفه الجبال اسمه ليون جاليسيا ، فقد أرجأه موسى
حتى يلقي نظرة على ما وراء جبال البرانس - أي فرنسا .
وقبل أن يعود من فرنسا كانت أوامر دمشق قد جاءت به
لكي يعجل بالعودة والكف عن الفتح ، فسار ولا يزال
هذا الركن بعيدا عن سيطرة المسلمين . ويشاء الله أن
تكون هذه المنطقة الأخيرة هي الملجأ الذي يتجمع فيه
القوط ، ويخذونه معتصما ، ثم يرايضون فيه ثمانية قرون
كاملة يدرون الحركة استقلالية . وقد ظفروا بها في
نهاية الأمر .

فماذا كان يريد موسى وطارق من هذه الجولة في
فرنسا ؟ ..

لقد طاف بذهن الرجلين هذا الحلم الذي طالما داعب
القواد الاسلاميين في شمال افريقية وهو النفوذ إلى اوربا
من اسبانيا ثم اجتياح الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط ،
والاستيلاء على فرنسا وإيطاليا والبلقان ، ثم طرق ابواب
بيزنطة (القسطنطينية) من الغرب بدلا من الشرق ،
والهبوط إلى الشام من آسيا الصغرى .

وقد علم الوليد بن عبد الملك بتفاصيل هذا المشروع ،
وخشى مغبة هذا الفتح - لا على المسلمين - ولكن على
الخلافة نفسها ، وكره ان يأتيه وهو في الشام جيش غاز
ينال كل هذه الامجاد وقد مهدد قائده دمشق نفسها
بأعظم الاخطار . فكتب بالكف عن الفتح . بالعدول
عن هذا المشروع ..

ومن المرجح ان النصر الذي لقيه المسلمون في اسبانيا
كان يدفعهم الي نصر آخر ، وأن تأخذ موجة الفتح
باعناق موجة أخرى ، وما هي إلا أعوام قليلة حتي يكون
المسلمون قد ركزوا أعلام التوحيد في أوروبا ، وتكون
الدنيا كلها ، ولا عقيدة لها إلا عقيدة هؤلاء الغزاة
البواسل القلائل الذين ارسلهم نبينهم محمد عليه السلام
ليجربوا فتح الامبراطوريات ، ويعلمهم كيف يجرؤ الايمان
صاحبه على الاتيان بالمعجزات

ولكن أنانية الامراء هي التي تحول دون الكثير من
مشاريع الحياة العظمى . . ولقد جرب المسلمون تحت
قيادة طارق وموسي النفوذ الي ما وراء جبال البرانس ،
ثم تمت محاولة تالية بعد سنوات قليلة .

ففي سنة ٧١٩ احتل المسلمون قسما من جنوب فرنسا ،

حتى وصلوا إلى مدينة ناربون . وبعد عامين وصلوا إلى
تولوز . وفي سنة ٧٣٠ احتلوا مدينة أفينيون ، ثم استمروا
في مطاردة الفرنسيين على نهر الجارون ، وحدثت معركة
عنيفة عند بوردو .

وفي سنة ٧٣٢ التقى المسلمون بالملك شارل بن بين ،
ودارت معركة عنيفة هزم فيها المسلمون . وقرروا بعد
هذه الهزيمة العدول عن مشروع الغزو ، ولو أن
الخليفة أو أمانة أفريقية كانت تشجع هذا المشروع ،
إذن لعاود المسلمون هجومهم ، ولظفروا كما ظفروا في
مواطن كثيرة . . .

يقول ابن بول : كان المسلمون يتوقعون نصراً كهذا
النصر الذي أحرزوه في إسبانيا ، فتخضع لهم فرنسا الجميلة
من كاليه إلى مرسيليا . ولقد حبست أوروبا أنفاسها
خلال هذه المعركة التي تعد إحدى المعارك الخمس عشرة
التي تقرر فيها مصير الدنيا . وكان على هذه المعركة أن
تجيب على السؤال الآتي :

هل تبقى أوروبا على مسيحيتها أم تعتق دين
الإسلام ؟ .

وهل ستبقى « نتردام » كنيسة التثليث أم تتحول

الى مسجد مجدي. وعند ما يحن وقت الصلاة في كنيسة
سنت بول ، هل كانت تردد صلوات المسلمين أم تسمع
ترانيل القسس والرهبان . ولقد أجابت المعركة على هذه
الاسئلة ، فأبقت لا وربا مسيحيتها . ولو كان الجواب
غير هذا ، لما وقف جند مجد إلا عند بحر المانش . . .
ولكن شاءت الظروف ان يصل مد الفتح الاسلامي الي
نهايته ، وأن يعقب المد جزر

نعود الى طارق وصاحبه وهما عند جبال البرانس في
فتح الطيب :

« ان موسى بن نصير نصره الله نصرنا ما عليه مزيد ،
وأجفلت ملوك النصرارى بين يديه . حتي خرج على باب
الاندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الارض
الكبيرة ، فاجتمعت الافرنج الي ملكها الاعظم » قارله «
وهذه سمة للمكهم ، فقالت له : ما هذا الخزي الباقي في
الاعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع
الشمس حتي أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد
الاندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد يجمعهم القليل
وقلة عددهم ، وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه :

الرأي عندي ألا تعرضوهم في خرجتهم هذه ، فانهم
كالسيل يحمل من يصادره . وهم في اقبال أمرهم . ولهم
نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة
الدروع . ولكن أمهلوهم حتى تمتليء أيديهم من الغنائم
ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويسمعين
بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر .
وتصف هذه المحاورة بطبيعة الحال ما حدث فعلا ،
بعد ان صدت خلافة دمشق هذا الجيش الملتهب المتحمس
عن استئناف الغزو . . .

والذي حدث ان الوليد بعث الى موسى بن نصير
رسولا يأمره بالعودة ، فكره موسى ان يعود ، ولا يزال
أمامه عمل كثير ، فأغري الرسول بالمال ، وطلب إمهاله
على ان يقسم معه الغنائم الجديدة ، فبقي واستبطأ الوليد
رسوله ، فأوفد رسولا آخر ، شدد عليه وأمره فعاد
معه موسى بن نصير وطارق بن زياد .

وترك موسى ابنه عبد العزيز في حكم الاندلس واتخذ
مقره اشبيلية (١) العاصمة القديمة لا تصالها بالبحر ، كما

(١) في ابن خلدون انه اتخذ قرطبة حاصمة له

ولي ابتد الا كبر عبد الله ولاية افريقية وكان مقره
القيروان .

وقفل موسى وطارق عائدین الى المشرق في آخر
سنة خمس وستين هجرية . وكان مقام طارق بالاندلس
قبل وصول موسى سنة . ومقامه بهد وصوله سنتين
واربعة اشهر

— ٧ —

نصير موسى وطارق

استحثت رسل امير المؤمنين الوليد الفاتحين الكبارين
وكان هذا الركب السائر نحو المشرق يحمل علي العجب
من أمره . . فتمد صاحب موسى بن نصير معه سباياه
وكنوزه التي غنمها في فتوحه الافريقية والاندلسية وفي
اغارات اسطوله على جزر البحر

وفي تاريخ ابن خلدون ان موسى وصل وهوراحل
الى دمشق مدينة القيروان عام خمس وتسعين هجرية ،
وارتحل الى الشرق سنة ست بعدها بما كان معه من
الغنائم والذخائر والاموال علي العجل والظهر

(الدواب) . يقال كان من جعلتها ثلاثون ألف فارس
من السي

وحدث في الطريق خلاف جديد بين موسى وبين طارق
ومغيث سفير الوليد و فاتح قرطبة . فقد كان من بين
الاسرى حاكم قرطبة الذي ذكرنا انه وقع أسيراً عند فتح
هذه المدينة . وذلك ان موسى اراد أن يزع فضل أسر
هذا الامير القوطي من مغيث وطارق ، فهم يقتل الاسير
فهذاه بالشكوى لامير المؤمنين . وعجلاً فعلاً بالمسير الي
دمشق ليسيقاته ، ويحدثنا عن أخطائه جميعا

وعند وصول موسى الي فلسطين ، لقيه سليمان بن
عبد الملك أخو الخليفة الوليد وولي عهده ، وطلب منه
التهل في مسيره الي دمشق لان امير المؤمنين علي فراش
الموت . وسليمان يطمع في أن يتسلم هو ما أحضر موسى
معه من الاندلس . ولكن موسى لم يلب هذه الرغبة .
وحت مطيه حتى وصل الي دمشق ، وبعد وصوله بأيام
قليلة جدا مات الوليد وتولي مكانه سليمان فكان غاضبا
علي موسى لانه لم ينفذ رغبته . ومن هنا بدأت الوحشة
بين الخليفة الجديد . وبين امير المغرب :

ويذكر المقرئ السبب الآخر في هذا التفاضب بين

الرجلين . وهو ان طارق بن زياد سبق موسى في مسيره :
ولقي سليمان وشكا له من موسى مر الشكوي فغير قلبه
عليه . » فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه . فأغلظ له
واستقبله بالتأنيب والتوبيخ . . فاعتذر له ببعض
العدر . »

ويظهر ان موسى كان ينسب لنفسه فتوح الاندلس
وغنائمها كلها . فلما قدم مائدة سليمان الي الخليفة . ذكر
له انها احدى غنائمه . فكذبه طارق وسأله عن رجلها
الضائعة ان كان صادقا . فسكت موسى ولم يجر جوابا .
وتقدم طارق بهذه الرجل . فكانت دليل كذب موسى
وبذا زاد اتهم الخليفة للامير . وامر به فأهين . ثم أمر
به فسجن ثم فرض عليه غرامة فادحة . تختلف المراجع
في تقديرها فهي بين مليون دينار ومئتي الف .

يقول ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب) : بعث
سليمان بن عبد الملك الى موسى فعنقه بلسانه وقال والله
لا آمن غربك . ولا فرقن جمعك . ولا صغرن قدرك .
فرد عليه موسى : أما قولك تهل من غربي وتنقص من
قدرى . فان ذلك بيد الله والي الله لا اليك . وبه استعين
عليك . فأمر به سليمان فوقف في يوم صائف شديد الحر

وكان موسى رجلا عظيما بادبا . فوقف حتى سقط مغشيا عليه . ثم نظر الى عمر بن عبد العزيز واستنجد به فشفع فيه عمر فسأل سليمان من يتطوع من رجال البسلاط للاحتفاظ به . فقام يزيد بن المهلب وطلب ضمه اليه . وذلك ان ابن المهلب كان يمتيا . وكان موسى ينتسب الي اليمن

فلما فرضت الغرامة على موسى عجز عن أدائها . وأخذ يسأل رؤساء القبائل اليمنية حتى أمدوه بنصف المال . فقدمه لسليمان بن عبد الملك . ويظهر انه اكتفى منه بهذا القدر بعد ان عزله عن جميع أعماله . وضمه الي حاشيته

ويذكر ابن عذاري ان سليمان قال لموسي : ما الذي كنت تفزع اليه عند حروبك ومباشرة عدوك . قال : الدعاء . والصبر عند اللقاء . قال : فأى الخيل رأيتها في تلك البلاد اسبق . قال : الشمر . قال : فأى الاعم كانوا أشد قتالا . قال هم أكثر من أن أصفهم . قال أخبرني عن الروم . قال : اسد في حصونهم . عقبان علي خيولهم ونساء في مراكبهم . ان رأوا فرصة انتهزوها وان رأوا غلبة فأوعال تذهب في الجبال . لا يرون الهزيمة عارا .

قال فأخبرني عن البربر . قال موسى . هم أشبه الضجج
 بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية غير أنهم أغدر
 الناس . لا وفاء لهم ولا عهد . قال سليمان فأخبرني عن
 الاندلس . قال . ملوك مترفون وفرسان لا يخيبون . قال
 فأخبرني عن الافرنج . قال : هناك العدد والعدة والجلد
 والشدة والبأس والنجدة . قال فأخبرني عن الحرب بينك
 وبينهم كانت لك او عليك فقال . اما هذا فوالله
 ما هزمت لي راية قط ولا بدد جمعي ولا نكب المسلمون
 معي منذ اقتضحت (سن) الاربعين الي ان بلغت
 الثمانين (١)

وقد ذكرنا قبل أن موسى ولد عام ١٩ للهجرة . وكان
 قعوله الى دمشق في سنة ٩٦ هـ فيكون قد بلغ عند عودته
 حدود الثمانين الا قليلا . . ولم تكتف أحزاب موسى
 وهو شيخ يزحف الي آخرته - باذلال سليمان بن عبد
 الملك له ، ولكن هذا الخليفة القاسي الظالم ارتكب جرما
 آخر أشد ايلاما وأبلغ تأثيرا ، لا في نفس موسى بن
 نصير وحده ، ولكن في كل نفس انسانية . ففسد

(١) ص ٢٠ الجزء الثاني

بلغ من قهقهته عليه وعلى الجنين جميعا - أن دس إلى
أهل الاندلس بقتل ابنة عبد العزيز بن موسى ، فقتل
وسيرت رأسه إلى دمشق ، ودفعت إلى سليمان في مجلسه
العام ، وموسى جالس بحضرته فقتل رأس الابن في
في حجر الأب ، فدمعت عينا الشيخ وتجلد للمصاب ، ولم
يزد على أن قال . هنيئا له بالشهادة . وقد قتلتموه وكان
والله صواما قواما .

ويذكر المقرئ أن هذا الحادث من وصيات سليمان
التي تعد له طول الدهر . ولم تقتصر زلات هذا الخليفة
على ما صنع بقواد المسلمين وأمرائهم في المغرب ، بل نال
بضربه وأذاه هؤلاء الفاتحين الكبار - الذين تغدوا
بالإسلام إلى الهند ، وضبطوا الدولة في عهد سلفه الوليد
أمثال قتيبة بن مسلم وعبد بن القاسم الذي بكى أهل
السند حين بلغهم تعذيب سليمان له حتى قتله ، وأسرة
الحجاج جميعا .

وما أبعد الفرق بين تصرفات خلفاء هذا العهد ، وبين
تصرفات رجل عظيم مثل عمر بن الخطاب ، الذي كان
يختلف مع قواده وأمراء جيوشه ويبلغ بينهم الخلاف
أحيانا حد التشاتم في الكتب والرسائل ، مثل مله دار

ليثه وبين عمرو بن العاص ، فما كان يبغض الناس حقوقهم
وما كان يخفض من مكانهم أو ينكر من سابقة جهادهم .
أنا نراه يعزل خالد بن الوليد ثم يذيع في الامصار
كتابا يشير فيه بفضل القائد الجبار . ويعظم حقه ومكانه
فإن هذا من ضيق العقل ، وضيق الخلق الذي كان
يستبد بالخلفاء بعد عمر ، فيحيلهم الي ملوك من أرخص
طراز لا يتأدبون بأدب الاسلام - ولا يتعلمون من
صحابة محمد عليه السلام .

لقد أخذنا على الوليد بن عبد الملك منذ حين أنه أوقف
موجة الفتح ، وكانت توشك أن تكتسح فرنسا ثم
أوربا كلها . فلما حاول المسلمون بعد حين معاودة الفتح
كان أعداؤهم قد تنبهوا الى خططهم ووقفوا لهم بالمرصاد
وهذه زلة عظيمة من الوليد نحسبها له وترجع سببها الي
نظره لشؤون الاسلام ، نظر ملك ، لا نظر خليفة لرسول
الله .. ونقول عنه هذا القول . على الرغم من أن رقعة
الامبراطورية وصلت في عهده الى ما لم تصل اليه قبله أو
بعده . فقد كانت الجيوش الاسلامية تغزو الهند ، وتجد
المسير في وسط آسيا كما أن الاندلس كلها أضيفت الي
رقعة الامبراطورية في عهده . نقول عنه هذا القول

وهو من هو مكانة بين خلفاء بني أمية ، وخلفاء العباسيين
أجمعين .. فماذا نحن قائلون عن أخيه سليمان بن عبد الملك
الذي حطم سيف الاسلام بما صنع مع كبار القواد وعظماء
الرجال . غضبا منه على البغيين . وانتقاما من هؤلاء الذين
اتبعوا مشورة الوليد في ولاية العهد ..

لقد خسر الاسلام في حكم سليمان - ولم يدم حكمه أكثر
من عامين - الشيء الكثير . وكان بدء تدهور الامويين
وقد حاول هشام من بعده إيقاف هذه التدهور . ولكن
العلة كانت أقوى وأفتك . فذهبت برمجهم . كما خلفت
في صفحة الحكم الاسلامي تقاليد سوداء . لم يتردد كثير
من خلفاء العباسيين والعثمانيين في الاخذ بها من
بعضهم .

...

ولعل أقسى ما يوصم به هذا الحكم في دمشق .
أنا وجميع المؤرخين غيرنا ، جددنا في البحث عن طارق
ابن زياد بعد وصوله المشرق فلا نعثر له على أثر .
لقد غمر . وضاع ذكره . وأصبح من عامة الناس .
وهل يمكن لحكم يقوم على الانانية أن تزكوا فيه ملكات
النايين ، أو يستفيد المجموع من نبوغ النابغين .

كان اسم طارق في الغرب يشير الملع في كل مكان
يعيش فيه أعداء الاسلام . كما يشير الاكبار والاعجاب
في كل مكان تظله أعلام التوحيد . فلما وصل إلى مقر
الخلافة . ضاع وغمر . ولم يعن مؤرخ من القدماء نفسه
بالبحث عنه وتقصى أثره

ومن الخير ان نذكر كلمة عن الفرق بين هذين
الرجلين : طارق وموسى من الناحية العامة ، فاليها
يرجع فضل الفتح . وهما من غير شك بطلا هذه القصة
الرائعة . قصة ضم الاندلس الى حظيرة الاسلام
ذكرنا من انباء موسى في فجر حياته انه كان
مغامرا حبا في المغامرة . لا عن عقيدة راسخة . فقد
انضم الى صفوف الزيريين . وقاتل الامويين . فلما
هزم ابن الزبير فر الى احد الامراء الامويين واحتسب
به . فكأنما كان يقاتل . لا عن عقيدة . ولكن رغبة
في ان يتصر صاحبه فيكون له في دولته المسكان
الذي يرجوه . وعرفنا عنه انه لما تولى احد الاعمال
بالبحر الختان الاموال . وفر مرة اخرى من سلطان
الدولة . حتى سدد عنه والي مصر عبد العزيز بن مروان

بعض دينه

وترى قصته مع طارق لا تدل على نبل أو ترفع
كما أن سيرته في جمع الغنائم والاسراف في أخذ الأسرى
مما يستوقف النظر من غير شك - ولقد رأينا محاولة
أن ينتهب فضل كل رجل يعمل معه ويحاول أن يعفي
آثاره . ولولا ساق مائدة الزبرجد التي أخفاها طارق
لما عرف أحد - ولما عرفنا نحن اليوم - أن طارق
هو فاتح طليطلة

ولكنه الى جانب هذا كله . كان رجلا شجاعا
الى أقصى حدود الشجاعة . خبيراً بفنون الحرب .
فطنا حذراً . فهو في معاملاته مع السكونت يليان
أو في تصرفاته مع قبائل البربر يكشف عن عقلية
ناضجة . وذكاء موفور . واليه يرجع الفضل في اقرار
الاسلام بين قبائل البربر . كما أن الظروف المختلفة
عاونت على القيام بحملة الفتح في الاندلس . فشغلت
هذه الحروب البربر عن أن يعاودوا فتنهم وثوراتهم
التي لم تنقطع - فكان موسى هو الذي أتم عملاً بدأه عمرو
بن العاص في سنة ٢١ هـ . وأمكنه بعد سبعين سنة كاملة
من جهاد متصل وضحايا في الانفس والاموال أن يضم

الشمال الافريقي بصفة اخيرة الى الدولة الاسلامية
أما طارق بن زياد ، فكان شجاعا كريما أبي النفس
كثير العفة عظيم الحظ من المقدرة الحربية ، فلم يتصرف
كما تصرف موسى في الاموال ، فيكتنزها ويحتجزها ،
وانما كان يفرق الغنائم بالعدل على جنده ، ويبقى الخمس
كاملا ، ويسيره الى دمشق أولا بأول ، ولهذا كان
جنده يحبونه حبا جما ، ولذلك نرى أحد ضباطه - مغيثا
الرومي - يأتي أن يتولي القيادة مكانه ، ويسرع الي
دمشق يشكو موسى بن نصير ، ويعود معه أمر لموسي
وطارق كي يسرعا الى الوليد في دمشق
ولعل اتصال طارق بالخليفة في عام الفتح ، وتخطيطه
موسى بن نصير كان من أهم أسباب تدمير موسى وشكواه
وقد أبلغ هذه الشكوى للوليد نفسه
ومهما يكن أمر الرجلين ، فقد أفادا الاسلام
والحضارة والرقى البشرى كله بما صنعا في الاندلس ،
وانتهيا جميعا إلى مصير يعيش الى الحزن ، فواحد نسي ،
وهو طارق ، والآخرون مات فقيرا دافع العين علي ابنه
وهو موسى

تحت راية الاسلام

كان أول الولاة المسلمين بعد الفتح هو عبد العزيز ابن موسى بن نصير وكان عمله شاقا بعد رحيل القائدين الفاتحين : ولكنه جد واجتهد حتى ضبط المناطق الثائرة وأقر الأمن فيها .. وقد حفظت لنا مكتبة الاسكوريال باسبانيا أثرا نفيسا جدا من عهد موسى هو النص الاصل لمعاهدة عقدت بين عبد العزيز وبين تيودمير حاكم مرسية وهو الحاكم القوطي الذي قابل طارق بن زياد عند نزوله إلى الاندلس .. وفي هذه المعاهدة التي كتبت بالعربية واللاتينية. تحديد للصلاات التي انشأها قواد وحكام الاسلام مع المقاطعات التي دانت لهم بالطاعة . وورد في هذه المعاهدة شروط الصلح التي تلخصها فيما يلي بعد أن بدأت بالبسملة .

أولا - لا يقاتل المسلمون « تدمير » ولا يسبوا نساء مملوكته ولا يفصلوا زوجة عن زوجها أو ولدا عن أمه .

ثانيا - لا يعارض النصارى في عبادتهم ولا تحرق كنائسهم

ثالثاً - تسلم مدن المقاطعة (مرسية Murcia) السبع لعبد
العزيز بن موسى . ويتولى تدمير حكمها باسم
عبد العزيز

رابعاً - تدفع جزية الرؤوس . وهي دينار عن كل
غني ونصف دينار عن الفقير . كما أن على الاغنياء أن
يدفعوا أربعة مكاييل من القمح والشعير والتخل والعسل
والزبد . ويدفع الفقراء نصف هذا المقدار كل عام .
وتاريخ هذه المعاهدة في رجب سنة ٩٤ هـ (٥ ابريل
سنة ٧١٣) وقد شهد عليها أربعة من كبار المسلمين
للموجودين في الاندلس (١)

...

ويقال ان عقد الاتفاق بهذه الشروط اغضب بعض
العرب من العائمين ، وعدوا عبد العزيز بن موسى بمالئنا
للمنصاري . وزاد اتهامهم له انه كان قد تزوج الملكة
ايلة (Egila) زوجة الملك القليل رديك واسماها ام العاصم
(بكسر العين وفتح الصاد) أي القلائد

(١) راجع تاريخ الامبراطورية الرومانية لجيرون — الجزء

الخامس — ص ٣٧٢ .

كما نسبوا له انه تهاون في اتمام فتح لوزيها نيا - البرتغال
الآن - وبعثوا بشكواهم الى سليمان بن عبد الملك فكادت
هي الفرصة التي ينتظرها

وفي تاريخ العرب في اسبانيا : « بلغوا مثالب افتروها
على عبد العزيز الى الخليفة سليمان بن عبد الملك . فدفعه
سخطه على موسى ان اتخذ رسالتهم حجة للامر بقتل
ابنه والي الاندلس . جاء هذا الامر الى خمسة من رؤساء
الجيش المثل اسبانيا ، فضربوا عبد العزيز بالسيوف
ضربة واحدة وهو يصلي في المسجد صلاة الصبح ،
وقطعوا رأسه ، ووضعوه في علبة ملئت عثرا ، وأرسلوه
الى الخليفة ، ودفنوا جثته في داره سنة ٩٧ هـ (٧١٥
للميلاد) وكانت مدة حكمه نحو ثمانية عشر شهرا »

ومن نصوص هذه المعاهدة نستطيع ان نستوحي
طبيعة المعاملة التي كان يعامل بها المسلمون أهل اسبانيا .
وهي كما نرى آفة التسامح والرحمة والرعاية لادب
الاسلام ورققه بالامم المفتوحة

وقد كان من نتيجة هذه المعاملة أن حرر رقيق
الأرض ، ورفعت الضرائب الباهظة عن الطبقة الوسطى
وزال نفوذ الكنيسة البغيض وانقضى عهد الاقطاع

وتحكم أصحابه في الرقاب والاموال . وقد استفاد الحكم
الاسلامي في الاندلس بغير قليل من أمراء القوط وكبار
حكامهم . فقد ذكر نفح الطيب أن الامراء الثلاثة أبناء
« غيطشة » انهم سافروا للقاء الوليد ، وانه ولاهم على كثير
من الاملاك في الاندلس مكافأة لهم . كما ان الكونت
يليان بقي في اماره سبته ووسعت امارته وزيد فيها .
وهذا « تدمير » يتي في عمله ويسير في قومه سيرة
حسنة تحت اشراف الحاكم العام

وأما طبقة اليهود فقد أتيح لها من الحرية والامن
ما لم تظهر به في حكم القوط . فقد أبيع لها تملك الارض
وكانت محرومة منه . كما أبيع لها الاتجار وبذا أخذت
تثري وتنتعش ، ووجدت تحت حكم الاسلام روح التسامح
التي خلقت من رجالها علماء ، ومن سائر افرادها أثرياء
إلا أن اليهود كسأنهم دائماً تمردوا على هذه النعمة
وأخذوا ينشبون أظافرهم في أعناق الشعب الاسلامي
في إسبانيا ، بإشاعتهم الربا ، واستحواذهم على أكثر
مصادر الثروة عن طريق الاحتيال ، فراقبهمحكام
المسلمين قليلا ، وضيقوا عليهم بعض الشيء . تقول بعض
الشيء لانه ضيق لا يناسب ، بل لا يبلغ عشر معشار

فأصنع معهم القوط ، فما كان منهم إلا أن لجأوا الى
 سلاح الغدر والخيانة ، فذهبوا الى بقايا القوط يخطبون
 ودهم ويرتمون في أحضانهم ، وقدموا لهم الأموال ،
 وعاونوا الفونس السادس على تملك قشتاله وليون سنة
 ١٠٨٥ م ، ثم ساعدوا القوط على إزالة ملك المسلمين من
 الأندلس كلها .

وليس في نطاق كتابنا ان نبحت عن تاريخ الأندلس
 بعد الفتح ، ولكننا نذكر مسرعين ، أن هذا الإقليم ظل
 تابعا لشمال إفريقية من الفتح من سنة ٩١ الى سنة ١٣٨
 ويسمى هذا العهد بعهد الإمارة . فقد كان أمير القيروان
 يرسل إلى الأندلس واليها ، أو يوافق على الوالي الذي
 يختاره أهلها . وكثيرا ما كان يبعث الخلفاء الولاة الى
 الأندلس مباشرة . وكان عهد الإمارة من حيث انصافه
 بالدولة الإسلامية كثير الاضطرابات لكثرة تغير الولاة
 ولعدم استقرار النظم الإدارية

وشاء الله أن ينقضى عهد الاضطراب والمخلاعات
 الداخلية بقدم أحد الأمراء الأمويين وهو عبد الرحمن
 الداخل ، أو صقر قریش كما أسماه أبو جعفر المنصور

- الخليفة العباسي - وقد أسس في الأندلس دولة أموية
مستقلة كل الاستقلال عن المشرق ، وعن سيطرة الخلفاء
وظلت هذه الدولة مزدهرة مشرقة حتى سنة ٤٢٢
ثم أعقبها حكم ملوك الطوائف الذي استمر نحو
قرنين من الزمان وانقضى عام ٦٢٩ . وأخذ حكم
الإسلام بعد هذا يتحسر عن الأندلس ويبقى في غرناطة
وحدها حتى عام ٨٩٧ . وهو العام الذي عبر فيه آخر
حكام المسلمين الأندلس إلى إفريقيا ، ومعه جنده
وظلت الأندلس من القرن التاسع الهجري إلى
منتصف القرن الرابع عشر ، لم تطأها أقدام جنود المسلمين
حتى كانت هذه الحرب الداخلية بين حزبي الجمهوريين
والوطنيين ، والتي ظلت نحو ثلاثة أعوام ، وكان عون
الوطنيين جيش المغرب (المنطقة الخليفية) وهو مكون
من سلالة أولئك الجند البواسل الذين صحبهم طارق في
سنة ٩١ هـ واكتسح بهم حكم القوط في عام واحد
ولقد دى هؤلاء الجند المسلمون البواسل مهمة
الفتح كما أدوها من قبل ، ولكن تحت رايات غير راياتهم
ثم أسلموا الحكم إلى الحزب الذي ساروا في ركابه ،
وعادوا من جديد إلى بلادهم ، ينظرون وينتظرون .

ولعل ضميرهم يسأل : هل من رجعة الى هذا الماضي
القديم . ماضي الحرية والجهاد . ماضي الهتاف بأن الله
أكبر ثم اندفاع الى الموت وساحة الاستشهاد
ما أحوج الاسلام اليوم الى طارق وطارق وطارق
لا يغزو ويفتح . ولكن ليحرر هؤلاء المسلمين من ذل
الاسر ، وينقل أبناء الحرية القديمة ، وسلالة جند محمد بن
عبد الله ، إلى حرية جديدة في ظل العقيدة السمحة
والسلام الدائم ؟

دار الثقافة العامة في ١٢ جمادى الآخرة ١٣٥٨
٢٩ يوليية ١٩٣٩

لا تنسى ...

كتاب الشهر القادم

محمد عليه السلام

بقلم محمد صليح

وهو اتمام للدراسة التي بدأها الاستاذ فتحي

رضوان لتاريخ رسول الله وانتهى بها إلى

الهجرة في كتاب محمد الذي صدر منذ خمسة

عشر شهرا

مجمعي شركة مصر

للدخان والسجائر

احدي مؤسسات بنك مصر

تصنع

انقى انواع السجائر المصنوعة

من أجود أنواع الدخان

التركي

والبغاري

واليوناني

أطلبوها من كل مكان

تم طبع القسم الاول من كتاب

مقائى واعلام

بقلم الاستاذ فتحى رضوانه

ساعة فى مدينة حابو - يوم فى بيان الملكات - فجر
فى الدردنيل - صباح فى مقبرة جنوى - ليلة فى
تل أبيب - يومان فى اكسريس الشرق
وتم طبع القسم الثانى وعنوانه :
مع الكتب والكتاب

صدر

كتاب صور اسرارية الجزء الثانى

بقلم الاستاذ عبد الحميد المشهدى

ثمنه خمسة قروش

يطلب من المكاتب ومن المؤلف بشارع مصطفى كامل

رقم ١٨ - القاهرة

المحرر المسئول | طارق بهه زياد | المحقق الأدبي
محمد صبيح | العدد ١٥ أول أغسطس | الجريدة مصر الفتاة

دار الثقافة العامة

في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ (محمد) عليه بقلم السلام محمد صبيح

سلسلة قادة الشرق

- ١ - فؤاد الأول
- ٢ - شاذلي باشا
- ٣ - الملك فيصل
- ٤ - ابن سعود
- ٥ - محمد عبده
- ٦ - مصطفى كامل
- ٧ - سعد زغلول
- ٨ - غازي
- ٩ - عزيز المصري
- ١٠ - عبد الكريم بطل الميراث

السلسلة الإسلامية

- ١ - أبو بكر الصديق (صدر)
- ٢ - عمر بن الخطاب »
- ٣ - عثمان بن عفان »
- ٤ - أبو بكر الصديق »
- ٥ - أبو جعفر المنصور »
- ٦ - هارون الرشيد »
- ٧ - المأمون »
- ٨ - طارق بن زياد »
- ٩ - محمد علي السلام محمد صبيح
- ٩ مكر محمد علي السلام محمد صبيح
- ١٠ - أبو حنيفة والشافعي
- بالم الدكتور مصطفى الركن

صدرت سلسلتنا قادة العالم ، وقادة الاسلام الأولى في ثلاثة عشر
كتابا هي : هنر ، ستالين ، الميكادو ، موسوليني ، أتاتورك ، ديفالير اشم
محمد علي السلام ، علي في جزئين ، معاوية ، خالد ، عمرو ، صلاح الدين

ثمان النسخة : قرشان ولاجدة خدم ٢٠ في المائة

المحرر المسؤول | طارق بن زياد | الحق الأدي
 محمد صبيح | العدد ١٥ أول أغسطس | لجريدة مصر الثقافية

دار الثقافة العامة

في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ (محمد) عليه السلام بقلم محمد صبيح

السلسلة الإسلامية

سلسلة قادة الشرق

- | | |
|-------------------------------------|---------------------|
| ١ - أبو بكر الصديق (صدر) | ١ - فؤاد الأول |
| ٢ - عمر بن الخطاب | ٢ - شاه إيران |
| ٣ - عمر بن عبد العزيز | ٣ - الملك فيصل |
| ٤ - أبو مسلم الخراساني | ٤ - ابن سعود |
| ٥ - أبو جعفر المنصور | ٥ - محمد عبده |
| ٦ - هارون الرشيد | ٦ - مصطفى كامل |
| ٧ - المأمون | ٧ - سعد زغلول |
| ٨ - طارق بن زياد | ٨ - فائدي |
| ٩ - محمد عليه السلام لمحمد صبيح | ٩ - عزيز المصري |
| ٩ مكرر محمد عليه السلام لفتحى رضوان | ١٠ - سيد الكريم بطل |
| ١٠ - أبو حنيفة والشافعي | |
| بقلم الدكتور مصطفى الوكيل | |

صدرت سلسلتنا قادة العالم ، وقادة الاسلام الأولى في ثلاثة عشر
 كتابا هي : هتلر ، ستالين ، الميكادو ، موسوليني ، أقاتورك ، ديفاليرام
 محمد عليه السلام ، علي بن جزيين ، معاوية ، خالد ، عمرو ، صلاح الدين
 ثمن النسخة : قرشان وللجملة خصم ٢٠ في المائة